

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة



X
C. 61

لِحَطَاكُمَعَ الذَّبْحِ وَأَبِيهِ

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

✓ بقلم عبد العزيز عنيمة

Ghannaym, Abd al-'Aziz

كتب إسلامية

يصدرها

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

القاهرة

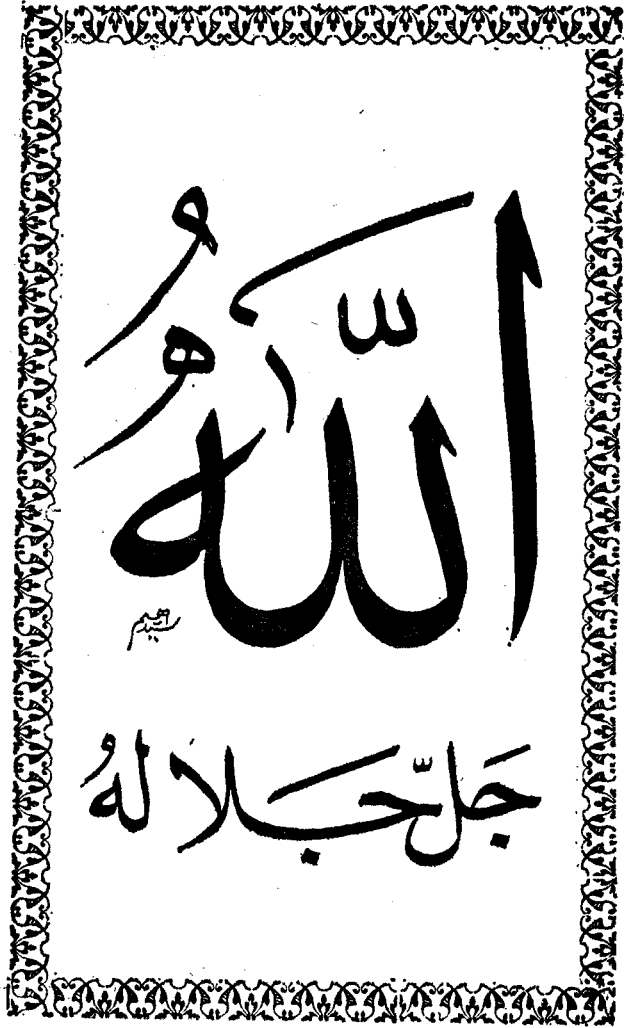
لِحَطَّائِنِ مَعَ الذَّبْحِ وَأَبِيهِ

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

بقلم عبد العزيز غنيم

العدد ١٢٩
السنة الحادية عشرة
١٥ من ذى الحجة ١٣٩١ هـ
٣١ من يناير ١٩٧٢ م

بمقره على إصدارها
محمد توفيق مويضة



الله

جل جلاله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

« وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي
المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم »
« قرآن كريم »

مقدمة

روى الاخباريون ونقله السنة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول : أنا ابن الذبيحين ، ورووا عن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما أن رجلا أتى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقال له وهو يخاطبه يا ابن الذبيحين ، وأنه عليه الصلاة والسلام هس لهذه المقالة وبش وبدت على وجهه أمارات الغبطة وعلامات السرور ، وأنت خير بأن هذين الذبيحين هما اسماعيل ابن ابراهيم وعبد الله بن عبد المطلب وأن هذين الرجلين كليهما قد كانا من آباءه عليه الصلاة والسلام وقد كان لكل منهما سيرته العطرة وتاريخه الطيب وجهوده المخلصة في بناء صرح الانسانية واعلاء لواء البشرية والدفع بعجلة الحياة نحو الخير والحق والصلاح .

وقد تناول القرآن الكريم اسماعيل فوصفه بالصدق والنبوة وقرر أنه كان يأمر أهله بالصلاة وهي أفضل العبادات البدنية والزكاة وهي أفضل العبادات المالية وأنه قد حظى من ربه بالرضا وظفر منه بالحب والعطف وناهيك برجل يحظى من ربه بهذه الشهادة ويسعد بهذا الثناء الذى يبقى ما بقيت الدنيا ويدوم ما دامت الحياة ، وعبد الله وان لم يذكر في القرآن

الكريم ولم ينل ما ناله جده اسماعيل من هذا الشرف السماوي الرفيع ، وهذا المجد الالهي العظيم فحسبه أنه ولد محمد عليه الصلاة والسلام وأقرب خلق الله صلة به ودنوا منه وانتسابا اليه ، وقد سلكه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في عقد الطاهرين وهو يزهو بأصله الكريم ونسبه العظيم •

وكيف أنه مازال ينتقل بين الأصلاب الطاهرة والأرحام الذكية حتى انتهى الى أبيه عبد الله والى أمه آمنة بنت وهب ولو لم يسجل التاريخ لهذين العلمين الكريمين سوى استسلامهما للقضاء وصبرهما على البلاء ورضاهما باسلام الروح وهى أعز شىء فى هذه الحياة اذعانا لأمر الله وامثالاً لطاعته وانقيادا لحكمته ومشيئته ، وان لم يستكنها سرها ولم يدركا هدفها لكفاهما هذا فخرا يدوم على الأيام ويبقى ما بقيت الأفلاك والنجوم •

وأنت خير بأن الأمم الفتية والشعوب القوية والحضارات الراقية والمدنيات السامية ، انما تقوم على أسس راسخة من القيم الفاضلة وتستند الى دعائم ثابتة من الأخلاق الكاملة وأنه لا سبيل أمام المجتمع الذى ينشد الدوام ويطلب الاستقرار ويهوى الحياة الراضية الصافية الا أن يسلك الى هذه الغاية السامية • وهذا الهدف الكريم طريق التأديب والتهديب الذى يصقل نفوس أبنائه ويجلو قلوبهم ويذكى أفئدتهم وضمائهم ويجعل الكلمة بينهم للفضيلة لا للردزية وللحق لا للباطل وللعادل لا للظلم ويدفعهم الى المثل العليا والقيم الفاضلة •

ولهذا رأينا القرآن العظيم وهو يبنى المجتمع المسلم يسلك هذا الطريق وينهج هذا السبيل فيحض على مكارم الأخلاق ويغري بمحاسن الشيم، ويستعين على زرع هذه القيم في القلوب وغرس هذه الفضائل في النفوس بعرض أمثلة رائعة من سير الصالحين وذكر نماذج طيبة من أخبار الماضين لا فرق في هذا بين من اختارهم الله تعالى للرسالة واصطفاهم للنبوة وبين غيرهم ممن لم يتبوءوا مكانتهم ولم يتسمنوا منزلتهم ولكنهم شاركوا في نشر الخير وعاونوا في اقرار الطهر وجدوا في اعلاء لواء الحق ورفع كلمة العدل .

ولم يضمنوا على الانسانية بجهد ولم ييخلوا في سبيلها بعمل .

وقصة الذبيح التي نحن بصدد تناولها في هذه السطور ليست سوى مثل من هذه المثل التي استهدف القرآن والسنة من وراء ذكرها وتسجيل خبرها تعليم المجتمع المسلم طائفة من الفضائل نذكر منها على سبيل المثال فضيلة الصبر والاحتمال وفضيلة الطاعة لله والامتثال لأمره وكيف أن النصر مع الصبر، وأن اليسر بعد العسر وأنه ما من شدة تستحكم حلقاتها وتستغلق أسبابها الا ولها حل يفرج كربها ويفتح بابها ويوهن عقدتها ويفسح الطريق بعد زوالها للسالكين واسع الجناح مبسوط الرحاب .

واذا كان أجدادنا الماضون وأسلافنا السابقون قد تعلموا من هذه القصة وأشباهها دروسا دربتهم على مكابدة الصعاب

وتخطى العقبات والتصدى لما في الحياة من الخطوب والكروب حتى انكسرت حدتها ووهنت شدتها واستقامت قنواتها فنحن في أيامنا هذه أشد ما نكون حاجة الى هذه القصة وأشباهها نلتبس منها العبرة ونأخذ منها العظة ونفهم واعين أن هذه الحياة ليست معطرة بشذى الياسمين، ولا هي مفروشة بالورود والرياحين وانما هي وعرة السبل فجة الطرق ، لا حلاوة فيها بدون نار ولا أمل بلا عمل ولا أمنية بلا بذل وتضحية وأن الاستقامة على الجادة والرسوخ على المبدأ والايمان بالعقيدة والقيام بالواجب والطاعة للمولى سبحانه بلا قيود ولا حدود هو الخطوة الأولى والأخيرة في بلوغ النصر وتحقيق الظفر .

وقد زعم اليهود أن الذبيح الذى سجل القرآن الكريم قصته وخلد سيرته ونشر في العالمين عطره الفواح هو اسحاق وليس اسماعيل حسدا من عند أنفسهم لنا وحققدا من أعماق أفئدتهم علينا ، وقد حرفوا من أجل ذلك كتبهم وبدلوا صحفهم وأسفارهم .

وعلى الرغم مما بذلوه في هذا من جهد وما عانوه من حقد وكيد فقد ظل الحق في هذه القضية واضح السمات بين القسمات حتى في هذه الكتب والأسفار .

وهذه السطور التى كتبتها في هذا الموضوع سوف تميظ للثام عن وجه الحق في هذه القضية فضلا عما استهدفه من ورائها

من العبر والدروس التي تجلو النفس وتطهر الحس ، والتي
أشرت الى طرف منها في هذه المقدمة وتركت ما بقى لعرضه في ثنايا
هذه الرسالة . والله أسأل أن ينير لى الطريق ويهدينى السبيل
ويجعل الحق غاييتى والرشد رائدى ويجنبنى الزلل فى القول
والخطل فى الرأى ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا فسدد الخطى
وبارك المسعى واجعل لى من لدنك ضياء وسنا .

المؤلف

ظُرُوفُ لَابَسَتْ مَوْلِدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لا خلاف بين المؤرخين في أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد عاصر النمرود وعائشه ودعاه الى دينه واشتد الجدل بينه وبينه ، ولا خلاف بينهم كذلك في أن النمرود هذا كان ملكا عظيم القدر عنيف القهر واسع السلطان وأنه كان وثنيا يعبد الأصنام شأنه في هذا شأن غيره من سائر الناس الذين كانوا ينحتون آلهتهم من الحجر وينجرون أربابهم من الشجر ويزعمون أن هذه الآلهة وهذه الأرباب تجلب لهم الخير وتدفع عنهم الشر وتنجيهم من البلاء اذا حل وتنفذهم من الشقاء اذا نزل ، ومع اتفاق المؤرخين على أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد عاصر النمرود وعائشه فانهم قد اختلفوا في اسم أبيه واختلفوا في المكان الذي ولد فيه وسواء أكان آزر الذي ورد في القرآن أباه أو عمه أو اسم صنم كان يعبد في زمنه أو كان وصفا قبيحا أو كريما لوالده وسواء أكان مولده في مصر أو في الشام أو في بابل أو في ديار قومه بفسدان آرام • فان العبرة المنشودة والعظة المقصودة من سيرته وقصة حياته لا تتوقف على الحسم في أية مشكلة من هاتين المشكلتين اللتين احتدم حولهما هذا الشجار ، وعلى كل حال فقد روى الاخباريون وكتاب السير حول الظروف التي ولد فيها ابراهيم عليه الصلاة والسلام أن النمرود رأى في منامه أن كوكبا هائلا قد انطلق من خلال الأفق ، وأن ضوءه

عد أخذ ينبثق وينتشر حتى غطى ضياء الشمس والقمر وأصبح
الملك كاسف البال محزون الفؤاد يفكر في هذه الرؤيا وفيما عسى
أن تسفر عنه من خير أو شر وكان الملوك فيما مضى يهتمون
بالأحلام ويدعون لها الكهنة والعرافين وأصحاب العلم بالنجوم
وكانوا يزلون على تأويلهم لها وتعبيرهم لأنبيائها وأطيانها
وكثيرا ما كان هؤلاء يصيبون وكثيرا ما كانوا يخطئون وكثيرا
ما كان تأويلهم هذا يشقى الرعية ويؤلمها وينزل بها من ضروب
المسف والاضطهاد ألوانا شتى وأصنافا مختلفة وكثيرا ما كان
هذا التأويل يحدث العكس من ذلك تماما فتسعد الرعية وتبتهج
ويصيبها من عطف الملوك ورضى الحكام ما لم يكن يخطر لها
ببال .

وأنت ترى هذا واضحا في القرآن الكريم ، ففي قصة يوسف
تجد اللون الذي أسعد الرعية وأبهجها وفي قصة موسى تجد
اللون الذي أشقها وأتعبها وعلى كل حال فقد جمع النمرود
السحرة والمنجمين وقص عليهم ما رأى وطالبهم بتأويله وتعبيره
واتفقت كلمة القوم على أن مولودا سيظهر في مملكته ، وأن هلاكه
وزوال ملكه سيكون على يده وتشاءم الملك واشتد غضبه وعزم
على منع هذه النبوءة من التحقق مهما كلفه هذا من الوسائل
وما تطلبه منه من الحيل والذرائع ، ويختلف الاخباريون فيما
فعله الملك لدرء هذا الخطب ودفع هذه الكارثة . فمنهم من يزعم
أنه ذبح الأطفال وحبس الرجال ومنهم من يزعم أنه جمع الحوامل

من النساء وحال بينهن وبين أزواجهن ومع هذه الاحتياطات العنيفة فإنه كان يأمر جنوده بتفتيش البيوت وقتل كل من يجترىء على مخالفة أمره مهما كان قدره ومهما ارتفع شأنه وقد تسأل وكيف ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الظروف وكيف نجا من هذا البطش؟ ويجيب الاخباريون بأن الملك قد غادر المدينة لبعض شأنه وأنه قد أناب عنه تارح والد ابراهيم بعد أن حذره الدنو من أهله وأن تارح لم يف للملك بما عاهده عليه فقد خلا بزوجته ونال منها اربه. وحملت هذه المرأة لتوها وخشى تارح أن يعلم الملك بما فعل فينزل به مر العقاب وهده تفكيره الى أن يدع زوجته في سرب ويتعهدا بالطعام والشراب حتى لا ينكشف أمرها ولا يعرف الملك ولا أحد من أعوانه شيئاً من أخبارها .

وولد ابراهيم في السرب وراحت أمه ترعاه وترضعه وتسهر على حمايته ووقايته وكان أبوه يختلف إليها من وقت الى وقت على خوف من الملك وأعوانه أن يكشفوا سره الذي لو استطاع ألا يطلع عليه نفسه التي بين جنبيه لما امتنع منه ولا تردد فيه. ويختلف الاخباريون في الفترة التي قضاها ابراهيم في السرب وهل كانت تعد بالشهور والأيام أم كانت تحسب بالسنين والأعوام وان كانوا قد اتفقوا على أن نموه فيه كان سريعاً

وأنه قد غادره عندما اشتد عوده واكمل وجوده ، وما أشك
في أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد راعته الطبيعة عندما
رأها وأذهلته الحياة عندما حلق بعينه فيها فهذه سماء ذات
أبراج وأرض ذات فجاج وهذه نجوم تلمع في السماء وأطياف
تسبح في الهواء ، وهذه بقاع تزهر بخضرتها وتميس في نضرتها
وهذه أجادب لا تمسك الماء ولا تثبت الكلال الى غير ذلك مما
تراه العين من العجائب وما يشاهده النظر من الغرائب ويروى
الاخباريون وكتاب السير أنه راح يسأل أمه عن كل ما يرى
ويستفسر منها عن كل ما يسمع وكانت أمه تخبره بقدر علمها
وتفيدة بقدر معرفتها وذات يوم سألتها قائلاً يا أم من ربى
وربك ورب أبى الذى كان يختلف الى واليك فيحضر لنا
ما نحتاج اليه من الطعام والشراب وأجابته أمه فى سذاجة يابنى
انه الملك وانه هو هذا الرب الذى تسألنى عنه ولم يقف
ابراهيم عندها الجواب ولكنه سألها قائلاً ومن رب الملك وأجابت
الأم من هذه المقالة وطففت فوق شعورها هذه النبوءة التى كان
السحرة قد أخبروا بها الملك وخشيت أن يكون ابراهيم هو هذا
الغلام الذى سوف يكون على يديه هلاك النمرود وزوال ملكه
وأسرعت الى أبيه تخبره بما سمعت وتفضى اليه بما راودها
من الظنون وما ساورها من الشكوك واشتد خوف تارح وخشى
أن يعلم الملك أو أحد أعوانه بشيء مما يقوله ابراهيم ألا يكون

له ولأسرته عنده سوى القتل والحبس الذى لا حد له ولا نهاية لآلامه وأحزانه فيه وظن أنه اذا خوف ابراهيم وحذره سوء العاقبة فانه سوف يقلع عن أسئلته هذه التى لا معنى لها والتى سوف لا تجلب عليه ولا على أسرته سوى الخراب والعقاب غير أن ابراهيم راح يحاور أباه كما كان يحاور أمه بل لقد كان فى مجادلته لأبيه أعمق نظرا وأشد اصرارا ولكى يثنيه أبوه عن هذه الفكرة فقد طلب منه أن يشارك أخويه فى بيع الأوثان وأن يأخذ وحده ما يربحه من هذه التجارة غير أن ابراهيم كان يذهب ببضاعته هذه الى السوق وينادى عليها قائلاً من يشتري ما يضره ولا ينفعه وما يؤذيه ولا يسعده وكان الناس ينظرون اليه فى دهشة ولا تمتد أيديهم الى شئ مما معه حتى اذا أخذت الشمس طريقها نحو الغروب رجع ابراهيم بما معه من الأصنام فألقى بها فى النهر بعد أن يكون قد أوسعها تشويهاً وتحطيماً .

ومضت الأيام بعد الأيام و ابراهيم يفكر فى هذا الكون الواسع ويتأمل فى هذه الطبيعة الرحبة باحثاً عن السبب الذى اليه ينتسب هذا الوجود والعلة التى تنبثق عنها هذه الكائنات التى لا نهاية لها ولا حد لألوانها وأجناسها ويحدثنا القرآن الكريم أنه نظر فى ملكوت السموات والأرض فأطال النظر وتأمل فيه فاستغرق فى

التأمل حتى إذا أسدل الليل سدوله وأرخی غلائله رأى فى قبة
الافق نجما يتألق ضياه ويلمع ثناء فراح يقارن بينه وبين ما يعبد
الناس من الأصنام المنحوتة والاوثنان المنجورة وقال هذا ربى فهو
أعظم من هذه الآلهة شأننا وأرفع منها قدرا غير أن هذا النجم ما لبث
أن خاب ظنه فيه فقد خفت ضوءه وذهب نوره وأخذ طريقه نحو
الأفول ولم يتمالك إبراهيم أن هتف من أعماق نفسه معبرا عن
ضياح أمله وخيبة ظنه لا أحب الآفلين فان الاله الذى أنشده
لا ينقص بعد كمال ولا ينطفىء بعد اشتعال وهذا النجم يبدو
ويستتر ويظهر ويختفى وبينما هو مستغرق فى هذا التفكير أشرق
البدر فى قبة السماء وبدأ فى حلة رائعة من البهاء والضياء وظن
إبراهيم أنه قد ألقى ضالته فهتف والغبطة تنبع من جوانبه وتتفجر
من نواحيه هذا ربى هذا أكبر حجما وأرفع شأننا وأروع حسنا بيد
أنه ما لبث هو الآخر أن اختلف بعد ظهور وانعدم بعد وجود
وراح إبراهيم يردد نفس العبارة التى هتف بها وهو يشاهد
النجم وقد أخذ طريقه نحو الزوال لا أحب الآفلين وذهب الليل
وتنفس الصبح ورأى إبراهيم الشمس وقد بزغت أشعتها وانتشرت
أضواؤها وأنوارها وراحت توقظ الحياة والأحياء بما تمنحهم من
الدفء وما تعطيه من النشاط وظن إبراهيم أن أمنيته قد تحققت
وأن أمله قد أصبح بين يديه غير أن الشمس ما لبثت هى الأخرى
أن أفلت ولم يعد لأشعتها الصافية الساطعة وجود على صفحة

هذا الكون وكان ابراهيم قد ألقى مرفأ اليقين فأرسي سفينة البحث
ونزل على ساحل الايمان ورفع يديه الى ربه ضارعا يلتمس منه
الهداية ويطلب العون والمساعدة وهبط عليه الوحي من قبل المولى
سبحانه أن أسلم قال أسلمت لرب العالمين وهكذا تم اصطفاء ابراهيم
للمرسالة واجتباؤه للنبوّة وبدأت منذ هذا الحين مرحلة جديدة من
مراحل حياته المعظمة بجلالته الفعال وروائع الأعمال •

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو إِلَى رَبِّهِ

وانطلق ابراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو الى دينه ويحث على ملته وكان أقاربه وأهل بيته بطبيعة الحال هم أول من بشرهم وأنذرهم ودعاهم وحذرهم ويسجل القرآن الكريم احدى المحاورات التي كانت بينه وبين أبيه فيقول « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ولا يغنى عنك شيئا يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أرأغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » وانك لترى فى هذه المحاوراة الرائعة ما يدهش قلبك ويذهل عقلك فقد انتقل فيها ابراهيم من الاستفهام الى الاسترحام ومن النهى المزوج بالحنان الى التخويف المقرون بالأمان ، والاستفهام كما ترى يلفت النظر فى أدب الى التأمل ويدفع العقل فى رقة الى التفكير ، والاسترحام ينهه من شررة النفس ويكفكف من حفيظة القلب ، والنهى والتخويف كلاهما يعملان على ترويض ما جمع من العواطف وكبح ما استعصى من المشاعر وما أروع قول ابراهيم فى ابتداء كل عبارة يا أبت فهى فوق استدرارها للعطف واستنباتها للود والطف تشير الى

ما كان يتمتع به ابراهيم من الأدب الجم والاحترام الزائد لأبيه على الرغم من اختلافهما في العقيدة وابتعادهما في المبدأ والغاية ومع هذا الحنان الغامر وهذه الرحمة المتدفقة من جانب ابراهيم فان أباه لم يذعن للحق ولم يستجب للهدى بل لقد انتهر ولده وهدده بالرجم اذا هو ظل على دينه الذي يدعو اليه بل لقد طرده من بيته وأقصاه عن منزله وتنتهى المحاوره بابقاء ابراهيم عليه السلام على أبيه ووعده اياه بأنه سوف يظل يطلب له من ربه العفو وينشد له المغفرة ، وينتقل ابراهيم من محاوره أبيه وأقاربه الى محاوره قومه وأهل بلده ويقص القرآن علينا طرفا مما كان بينه وبينهم فيقول « واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقئنى واذا مرضت فهو يشفين والذى يميئتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتنى يوم الدين رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لأبى انه كان من الضالين ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » وأنت اذا تأملت هذا المشهد الرائع وهذه المناقشة الهادئة العميقة لا تملك الا أن تذعن لابراهيم عليه الصلاة والسلام بالحكمة وتشهد له بالبلاغة وتؤمن بأنه كان واسع القدرة بالغ التأثير عارفا بمسالك التأديب ووسائل التهذيب فهو يبدأ نقاشه لقومه بهذا الاستفهام المزوج بالحيرة والمرارة ماذا تعبدون؟ ويوجب

قومه في بساطة وسذاجة نعبد أصناما فنظل لها عاكفين وينتزه
 ابراهيم هذه الفرصة وهذا الاعتراف من قومه بأن ما يعبدونه
 ليست سوى أصنام منجورة من الشجر وأوثان منحوتة من الحجر
 فيسألهم في تعجب بالغ واستغراب دافق هل يسمعونكم اذ تدعون
 أو ينفعونكم أو يضرون وينظر القوم فاذا أبواب القول أمامهم
 قد ارتجت واذا مسالك الحجج قد سدت واذا هم ينظرون
 فيرون ما بينهم وبين الحق كما بين السماء والأرض ولا يجدون
 ما يقولونه لابراهيم سوى أنهم هكذا وجدوا الآباء والأجداد
 فهم ينهجون نهجهم ويقتفون آثارهم أما الحجة التي يطعن اليها
 العقل فليس لها في هذا المقام موضع تحل فيه ولا ركن تأوى
 اليه وهنا يكون الجو أمام ابراهيم قد تهيأ لارساء عقيدته
 وتوطيد مبدئه فيعلن عداوته لآلهتهم وبراءته من أربابهم وأنه
 لا ينبغي أن يعبد الا الله وحده فهو الخالق والهادى وهو المطعم
 والمستقى وهو الذى يغسل المرض بالشفاء ويمحق الفقر بالعتاء
 وهو الذى بيده الموت والحياة وهو الذى ان شاء غفر الذنوب
 وستر العيوب ومنح الثواب العظيم والمقام الكريم ويختتم ابراهيم
 هذا النقاش بهذا الدعاء الذى يسأل فيه الخير لنفسه والمغفرة
 لأبيه والنجاة من خزي الاثم وخجل المعصية في يوم لا ينفع
 فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم وهكذا يهدم
 ابراهيم في هذه المحاورة صرح الباطل ويبنى ركن الحق
 ويثبت بالدليل وجود الاله الواحد ويجمع بين ما لهذا الاله
 على عباده من الاحسان في هذه الدنيا وفي الحياة الآخرة.

المحنة

ويكرر اللقاء بينه وبين قومه وتتعدد المجالس والاجتماعات ويفيض ابراهيم فيها على الناس من واسع علمه ورائع فقهه ودقيق حكمته وعميق مأخذه وحسن فهمه وجمال منطقته ما يملأ النفوس روعة ويفعم القلوب اعجابا ويكشف القناع عن وجه الحق ويميط اللثام عن قسّمات الخير غير أن قلوب القوم قد كانت في أكنة مما يدعوهم اليه وفي آذانهم وقر ومن بينهم وبينه حجاب فلم تجدهم النصائح ولم تنفعهم العظات ولم يؤثر فيهم وعد ولا وعيد ولا تبشير ولا تهديد وكان ينتهي كل مجلس من هذه المجالس الكثيرة التي كانت بينهم وبين ابراهيم بهذه المقالة التي تعتصر قلبه وتجرح كبده وتضيق صدره وتدخل الأسي في أعماق نفسه وقالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، ولم يجد ابراهيم بدا من أن يعالج هذا الأمر بالحزم ويداويه بالحسم ويضرب القوم في عقيدتهم هذه ضربة توقظهم من الكرى وتنبههم من الغفلة وتلفت أفئدتهم في عنف الى التفكير

فيما ينصحهم به والتأمل فيما يدعوهم اليه والمقارنة بين ما ورثوه من الأعراف والتقاليد وبين ما ينادى به من الهدى والتوحيد ولا سبيل أمامه الى هذه الغاية الا أن يحطم أصنامهم ويكسر أوثانهم ولكن متى تسنح له هذه الفرصة ومتى يتحقق له هذا الأمل أن المعبد لا يخلو من الزائرين ولا يقفر من الغادين والرائحين وحتى اذا جاز أن يخلو من الناس في ساعة من ليل أو نهار فان سدنة الأصنام هذه لا يفارقونها وان حراسها لا يناون عنها وبعد تأمل وتفكير يجد ابراهيم الحل لهذه العقدة ويبرر الفرج من خلال هذا الضيق فقد اقترب عيد القوم ولم يبق بينهم وبينه غير أيام معدودات يقضونها في اعداد القرابين وجمع النذور وتجهيز ما اعتادوا أن يضعوه بين أيدي الالهة من الأطعمة والأشربة وهذا العيد وحده هو الذي يخلو فيه المعبد من سائر الناس حتى السدنة والكهنة الذين لا يفارقونه فانهم يخرجون هم الآخرون لمشاركة القوم في لهوهم ومزاملتهم في لعبهم وعبثهم وينتظر ابراهيم هذا العيد بقلب مثلهف ونفس متعطشة ويحيئه أقاربه وأصدقائه ومن يألفونه من وجهاء قومه ويطلبون منه أن يخرج معهم وأن يشاركهم سرورهم وغبظتهم ويرفع ابراهيم وجهه الى السماء ويقلب عينيه في الفضاء ويجيبهم في أسى وحزن انى سقيم وقد كان سقيما حقا فقد آله ضلال قومه وبرح به كفرهم واعتصر فؤاده تعصبهم للباطل

ونأيهم عن الحق وأعياء مداواة هذا الداء وإبراء هذه العلة ولا تسل عن حزن الأنبياء والمرسلين عندما يدعون قومهم فلا يستجيبون ويأمرونهم فلا يأترون ويحثونهم على طريق الجنة وهم يابون إلا أن يتهافتوا في اللظى ويتراءوا في السعير ويدبر القوم ويخلو الجو أمام إبراهيم ويتمتم معتبطا بهذه العبارة « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » ويقبل صلوات الله وسلامه عليه حتى إذا كان في وسط المعبد وكانت الأصنام بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله راح يرمقها باحتقار وينظر إليها في استخفاف واثمئزاز وكان القوم قد وضعوا أمامها نذرهم وقربوا لها قربانينهم، طعام كثير وشراب من العسل واللبن والخمور وصاح إبراهيم في وجه الآلهة ما لكم لا تأكلون ألم ترقم هذه الاوان المختلفة من الطعام وهذه الأنواع المتعددة من الشراب ورفع معوله وراح يضرب الأوثان وثنا بعد وثن ويحطم الأصنام صنما بعد صنم حتى جعلهم جزازا الا كبيرا لهم لعل القوم يرجعون اليه فيما جرى لها ويسألونه عما أصابها وما أشك في أن إبراهيم كان يعلم أن القوم سوف يفتنون اليه ولكن بعد أن يستقر في نفوسهم أن آلهتهم ضعيفة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرا ولا أن تدرأ عنها مكروها وأنها ليست سوى أحجار لا مشيئة لها في نفسها فضلا عن أن يكون لها هذه المشيئة في غيرها وأذهلت القوم المفاجأة وعقدت ألسنتهم الصدمة وقد عادوا الى الآلهة يلتمسون منها البركة ويجدون عندها العون والسعادة فاذا هي قطع منفردة

وأشلاء متمزقة واذا الفأس معلق في كتف كبيرها كأنما هو الذى غضب عليها فأنزل بها هذا الهول وأوقع بها هذه النكبة ولما خف وقع الالم ووهن تأثير الكارثة راح القوم يتساءلون مشدوهين « من فعل هذا بالهتنا انه لمن الظالمين » وتتردد الأصوات من كل ناحية قائلة « سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » ويضج القوم غاضبين وهم يقولون «فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون» ويقبل فريق منهم الى ابراهيم حتى اذا أحضروه راح كبارهم وأولو الحول والطول فيهم يسألونه « أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم » وأجاب صلوات الله وسلامه عليه فى تهكم وازدراء بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون وظن القوم لسذاجتهم وضعف عقلهم أن كبير الأصنام هذا ربما يكون هو الذى أنزل بزملائه هذا الأذى وألحق بهم هذا التحطيم والتكسير وما له لا يفعل أليس يغضب كما يغضبون ويثور كما يثورون ومن يدري فقد يكون زملاؤه هؤلاء هم الذين اضطروه الى هذا الغضب ودفعوه الى هذه الثورة وذهب القوم الى الاصنام يستوضحونها الخبر ويعرفون منها حقيقة ما وقع ولكنهم ما لبثوا أن عادوا الى ابراهيم وقد خابت آمالهم وضاعت مساعيهم وهم يقولون « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » وسنحت أمام ابراهيم الفرصة لينال من آلهتهم ويسخر من أربابهم وينبهم فى عنف وصرامة الى فساد عقيدتهم وضعف مداركهم فطلق يقول لهم « أتعبدون ما تتحتون

«والله خلقكم وماتعملون» «أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلاتتعقلون» فانظر كيف سخر ابراهيم من عقيدة القوم وكيف هزىء بألهتهم وكيف أبان لهم أنهم هم الذين صنعوها بأيديهم وأن الله هو الذى خلقها واياهم وأنها لا تضرهم ولا تنفعهم وتأفف عليه الصلاة والسلام منهم ومن أربابهم وتساءل فى ألم وحسرة عن عقولهم متى تثوب اليهم وعن البابهم متى تعود الى أماكنها من رؤوسهم وان تعجب فعجب اسرار القوم على عبادة آلهتهم وقد اتضح زيفها وانكشف ضعفها واستبان خطأ رأيهم فيها وقبح تعلقهم بها وراح كبارؤهم يتشاورون فيما ينبغى أن يفعلوه بهذا الذى فضح الآلهة وسفه العقول وأتاهم بما لم يأتهم به أحد فى زمانه ودعاهم الى ما لم يدعمه اليه غيره فى عصره فالعالم شرقه وغربه وباده وحاضره ورجاله ونسأؤه وملوكه وحكامه يعددون الآلهة وينوعون الارباب ولا ينفقون لاله واحد كما يريد منهم ابراهيم أن يفعلوا ولو كان ما يقرره حقاً وما يدعو اليه صواباً وصدقاً لكان لنحلته هذه من يؤمن بها ممن يقاسمونهم العيش على ظهر هذا الكوكب واجتمعت كلمة القوم على الاستراحة من ابراهيم والتخلص من كيده وافكه كما كانوا يزعمون وصدر الحكم بتحريقه بالنار وانتفقوا على الوسيلة التى سوف يكون بها تنفيذ هذا الحكم وتوقيع هذه العقوبة وهى أن يبنوا له بنيانا ويقذفوه من فوقه فى وسط الجحيم وراحوا يجمعون الحطب ويحشدون الخشب وجدوا فى ذلك حتى شارك فيه الصغار والكبار والرجال والنساء حتى ان المرأة كانت تنذر لئن قضيت حاجتها أو برئت من علتها لتأخذن جملها وتشارك فى جمع

الوقود لاحتراق ابراهيم ولما تجمع للقوم من الوقود ما أرادوا واحتشد لهم منه ما أحبوا أضرموا فيه النار حتى اشتد لهبها وعظمت ذوائبها وخيل لمن ينظر اليها كأنها توشك أن تبلغ الافلاك وأن تنال الكواكب والنجم جاؤا بابراهيم وأدخلوه على الملك وراح الملك يحاوره لعله يرجع عن رأيه ويثوب الى رشد مويقلع عما هو سادر فيه من عبادة الاله الواحد الى ما ألفه قومه وعاش عليه آباؤه وأجداده ودارت بينه وبين الملك هذه المحاوره القصيرة التي سجلها القرآن الكريم في قوله تعالى :

« ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » •

وواضح من هذه المحاوره أن الملك سأل ابراهيم عن السبب الذى من أجله يدعو الى عبادة المولى جل وعز وأن ابراهيم قد أخبره بأن هذا السبب هو أن الله الذى يدعو اليه هو الذى يمنح الحياة لمن يشاء وينزل الموت بمن يشاء ولم تقنع الملك هذه الحجة وزعم أنه يحيى ويميت تماما كما يفعل رب ابراهيم الذى يدعو اليه وهنالجا ابراهيم الى مظاهر الطبيعة وما فيها من الآيات الدالة على وجود المولى سبحانه وقال له ان يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وبهت الملك ولم يستطع أن يحير جوابا فقد أذهاته الحجة وأخرسه الدليل ولعلك تسأل ولماذا لم يرد الملك هذه العلة كما رد العلة السابقة وهل كان يعييه أن يقول لابراهيم أنا الذى أتى

بالشمس من المشرق كما قال له من قبل أنا الذى أحيى وأميت
 والجواب أن هذا لم يكن فى استطاعته فان الشمس تات من المشرق
 من قبل أن يأتى هو الحياة ولا يستطيع أن يحتال على هذه الحجة
 كما احتال على سابقتهما بدعوة رجلين قضى عليهما بالموت فيطلق
 أحدهما ويضرب عنق الآخر ويزعم بهذا أنه خالق الموت والحياة
 ومن الناس من يدعى أن الشمس التى وردت فى محاوره ابراهيم
 ليست هى هذا الكوكب المشهور وانما هى شمس الحياة التى تشرق
 فى الجسم بأمر الله والتى لا سبيل الى اعادتها اليه بعد أن تأخذ
 طريقها نحو الغروب واذا صح هذا التأويل فان ابراهيم يكون
 بهذه الحجة قد أبطل هذه الحيلة التى توسل بها الملك فى أنه يحيى
 ويميت تماما كما يفعل رب ابراهيم لان الملك لم يعد الحياة الى من
 أطلقه وانما أبقى عليها فيه وهو قول يفتره وادعاء يدعيه وعلى كل
 حال فان الملك قد غاظه منطق ابراهيم وقوة حجته وأمر به فسيق
 فى القيود والاعلال الى البناء الذى كانوا قد أعدوه له وما أشك
 فى أن الناس قد خفوا جميعا لمشاهدة هذا الحدث ومعاينة ابراهيم
 وهو يقتاد الى مصيره المؤلم ونهايته الحزينة المفجعة ويروى
 الاخباريون وكتاب السير أن ابراهيم لما استقر على البناء شد
 الجند وثاقه وأحكموا رباطه ووضعوه فى منجانيق ضخمة وألقوا
 به فى النار وقد كانت كلمة واحدة يمكن أن تنجى ابراهيم من هذه
 المأساة ولكنرضى بالقضاء وصبر على البلاء وترك نفسه لله
 الواحد يتصرف فيه كما يشاء وكم كان عجب القوم ودهشتهم وكم
 كان ذهولهم واستغرابهم عندما انطفأت النار وخمدت جذوتها
 وأحرقت كل ما أعدوه من الحطب والخشب وبقي ابراهيم كما هو

لم تصبه النار بأذى ولم تمسه بسوء حتى ثيابه ونعلاه وغطاء رأسه لم يمسسها لهب هذه النار ولم تदन منها حتى ولا شرارة من شرارها ويعلم القرآن الكريم ذلك بأن الله تعالى قد أمر النار أن تكون على نبيه هذا بردا وسلاما فكانت كذلك لم يضره حرها ولم يمسسه لهبها ويقول العلماء انه ما من كائن في الارض ولا في السماء الا وقد رثى لابراهيم وتوسل الى الله تعالى في انقاذه وأن الله سبحانه أنزل عليه جبريل يؤنسه وأرسل اليه ملك الظلم يسليه ويرافقه وأن ابراهيم على الرغم مما أصابه لم ينطق بكلمة فيها ضجر ولم يتفوه بلفظة فيها يأس حتى ان جبريل طلب منه أن يسأل الله في كشف هذا الضر عنه ، وأنه اعتذر بعلم الله بما هو فيه وانه ان شاء أنجاه وان شاء أرداه . ونعود الى قومه وقد أذهلتهم المفاجأة وأحاط بهم الدهش وراحوا يقولون لابراهيم عظيم ربك هذا الذي تعبد له لقد كشف عنك الضر ودرأ عنك الخطر وأنجأك من النار وقد أوشكت أن تحرق الشموس والاقمار وأمر الملك بأربعة آلاف بقرة فنحرت قربانا لهذا الاله العظيم .

ابراهيم يهاجر بدينه :

ومع هذه الاية الكبرى وهذه المعجزة الخارقة فان القوم قد أصروا على الكفر وعكفوا على الباطل وأبوا أن ينقادوا لله الواحد الأمر الذي لم يجد ابراهيم معه بدا من مفارقتهم وهجر ديارهم عسى أن يجد في غيرهم من يكون ألين منهم

قلبا وأظهر نفسا وأنقى ضميرا وأقرب الى الاستجابة الى الهدى والميل الى الحق وأخذ صلوات الله وسلامه عليه طريقه الى الشام ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط وهؤلاء القليلون الذين أطاعوه من قومه وآمنوا به من أهل بلده والقرآن الكريم يصور لنا هذه الحادثة في سورة المنتحنة فيقول المولى سبحانه « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا براءؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لابييه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » فقد برىء ابراهيم ومن معه من قومهم وكفروا بالهتهم وأبدوا لهم عداوتهم وبغضهم حتى يؤمنوا بعقيدتهم وينزلوا على مبدئهم ولم ينس ابراهيم أباه وهو يغادر المدينة فرق له وحن اليه ووعدته بأنه سوف يظل يستغفر الله له وان كان لا يملك له من الأمر شيئا ثم رفع لواء التوكل وأعلن التوبة وذكر أن المصير الى الله فمقاليد الحياة بيده وأزمتها في يمينه وهو القادر على أن يخلق لهم اليسر من العسر والفرج من الشدة ويروى بعض العلماء أن ابراهيم لقي ابن أخيه لوطا وهو بباب المدينة فأمن به وهاجر معه وكان له نعم الرفيق في السفر ونعم المعين في الرحلة •

وما أشك في أن فراق ابراهيم عليه الصلاة والسلام لوطنه
كان هينا عليه ولا سهلا في نفسه فليس شيء في هذه الحياة
أحب الى الانسان من وطنه فهو على أرضه درج وتحت سمائه
نمى وفي مغانيه ومجاليه رأى نور الحياة وظلامها وذاق حلاوتها
ومراتها وعرف أحزانها وأفراحها وما أشك في أن ابراهيم قد
وقف قريبا من فدان آرام وهو يغادرها وراح ينجبها في ألم
ويخاطبها في لوعة ويعتذر لها عن فراقه اياها بمثل ما اعتذر به
محمد عليه الصلاة والسلام لمكة وهو يغادرها الى المدينة فما
أشبه الهجرتين وما أقرب الجماعتين فقريش آذت محمدا حتى
أخرجته مضطرا وقوم ابراهيم عاندوه وقاوموه حتى لم يجد
بدا من النأي عنهم والبعد عن ديارهم وما أشك في أن ابراهيم
قد ذكر وهو يأخذ طريقه نحو الشام ما مر به في فدان آرام من
المآسى وما عاناه من الآلام وكيف أنه قد خرج من ظلمة
السرداب الذى ولد فيه الى ظلمة الشرك التى خيمت على
نفوس قومه وذويه وكيف أن قومه قد تفتنوا في ايدائه وأمعنوا
في كيدته وكادوا أن يذيقوه مرارة الموت بين السنة السعير لولا
أن الله تعالى قد أخذ بيده ووقف الى جانبه ومع كل هذا التتكيل
والتعذيب فقد كان قلبه سليما من الأحقاد بريئا من السخائم يدرأ
الشر بالخير ويدفع القسوة بالصفح ويقابل الاساءة بالاحسان

ويروى المؤرخون وكتاب السير أن الله تعالى قد أمد ابراهيم في مهاجره بالنعمة وأفاض عليه من الفضل فكان له هناك من الابل والبقر والغنم ما كان يعد بالمئين وكان لوط ينزل معه حيث نزل ويرعى معه حيث رعى حتى اذا سال الخير وعمت النعمة استقل كل منهما عن صاحبه فنزل لوط اقليم الأردن ونزل ابراهيم اقليم فلسطين ويروى الاخباريون وأصحاب العلم بالماضين أن القحط نزل حيث كان ينزل ابراهيم ولم تجد نعمة وغنمه النبات الذي ترعاه وأنه لم يجد بدا من مغادرة هذه الأرض الى مصر حيث الماء الغزير والخير الكثير ومصر يومئذ كانت تحت حكم الرعاة أو الهكسوس كما يسميهم المؤرخون وقد كان الفرعون الذي يحكم مصر أثناء هجرة ابراهيم اليها ونزوله بها ظلوما غشوما قد أطلق العنان لشهواته وأرخصى الحبل للذاته ونزواته وكان لا يسمع عن امرأة جميلة حتى يفترسها ويقتل زوجها وكانت سارة امرأة ابراهيم على جانب نادر من الروعة والفتنة وفي الصحاح من الاحاديث الواردة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه أنها أوتيت شطر الحسن ونهيك بامرأة تظفر وحدها من الحسن بالشطر بينما يوزع الشطر الثاني على سائر البشر ممن خلق الله وممن سيخلق وعلم الملك بنزول ابراهيم في أرضه واقامته في دياره وعلم بما عليه امرأته من السحر والفتنة وما أشك في أن جلساءه وأعوانه على الشر والاثم قد زينوها له وحسنوها في عينه وأغروه بأن يطبق عليها نفس القانون الذي ما انفك يطبقه على كل هيفاء حسناء تدفع بها الأقدار الى هذه البلاد وأرسل الملك الى ابراهيم وراح يسأله عن حاله وماله

وما دفعه الى النزول بأرضه وهكذا حتى تطرق الحديث الى هذه المرأة الجميلة التي في رحله وتروى الآثار أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام أخبر الملك عن سارة بأنها أخته ويظهر أنه كان يعرف من قبل عادة الملك أو أن أحد المصريين حدثه عنها محذرا عندما رأى امرأته وشاهد ما هي عليه من الحسن ويظهر أن اغراء جلساء الملك وحاشيته بهذه المرأة كان شديدا فانه لم ينصرف عنها بعد أن علم بأنها أخته وليست زوجة له فقد أمره بتزيينها له واحضارها اليه وعاد ابراهيم الى سارة وقص عليها القصص وحذرها من أن تخالفه فيما أخبر عنها به الملك وقال لها لقد قلت له انك أختى وأنت كذلك فليس على ظهر الأرض من هو على ديني الا أنا وأنت ، وفي الأسفار القديمة والآثار الشريفة أن امرأة ابراهيم أنت الملك في قصره وأنه حاول أن يمد اليها يده بالسوء وأن الله عز وجل قد منعه من ذلك فقد بيست يده والتصقت بصدره وأحس بالرعدة تمشى في عروقه وتسرى في مفاصله وطفق يسأل سارة في ضراعة ويرجوها في ذل أن تنتقذه مما هو فيه وأنها اذا فعلت فسوف يطلقها الى بيت زوجها وسوف يمنحها من العطايا والهبات ما تقر به عينها وأثر هذا الالاح في قلب المرأة فعفت عنه وسألت الله سبحانه أن يجيره مما هو فيه وما كاد الملك يعود الى قوته ويحس بدفع المعافية يمشى في مفاصله حتى غلبته نزوته وطفقت عليه شهوته وطفق يراود سارة مرة أخرى ولكنه ما لبث أن عاوده ما كان قد أصابه فبيست يده وارتعدت مفاصله وزاد وجيب قلبه وخيل اليه كأن الموت قد هبط عليه كما يهبط العقاب الكاسر على الفرخ الصغير

وعاد الملك الى سارة يسألها العفو ويرجوها المغفرة ويؤكد لها أن يده لن تمتد اليها بشر وأنها ستجد منه الكرامة والرعاية اذا هى دعت ربها هذا العظيم أن يرفع عنه ما أصابه وأن يجيره بما هو فيه وما كاد الملك ينجو من هذه الشدة ويخلص من هذا الألم حتى آوى الى مخدعه ينشد الراحة ويطلب الهدوء وكأنما كان النوم فى انتظاره فما كاد يستقر على سريره حتى ضمه اليه فى رقة وأدناه منه فى حنان ورأى الملك فيما يرى النائم كأن عملاقاً ضخماً يهدده ويتوعده ويحذره ان هو اقترب من هذه المرأة فلن يكون له عنده سوى الموت الزؤام ولكن بعد أن يجرعه كؤوس الردى وأكواب الآلام وأفاق الملك مذعوراً وأمر باحضار أولئك الذين أغروه بهذه المرأة وزينوها فى عينه وصب عليهم جام غضبه وسخطه وأمر سارة أن تعود الى بيت زوجها وأعطاها بقراً وغنماً وجارية وكان الله عز وجل قد رفع الحجاب بين ابراهيم وبين القصر فرأى بعينه وسمع بأذنيه ولم يخف عنه مما كان بين زوجته وبين الملك شئ وقالت سارة لابراهيم حين دخلت عليه لقد خذل الله الكافر وأخذ منا هاجر وأعطانا ما ترى من هذه النعم وهذه الغنم •

وقد تسأل وكيف يقول ابراهيم للملك عن سارة أنها أخته وهى زوجته وكيف يتفق هذا وما أجمع عليه العلماء من أن الأنبياء الا يكذبون وأنهم لو كذبوا لهانت مكانتهم وهوت منزلتهم وانتفتت الثقة بأخبارهم واختلط فى أقوالهم الحق بالباطل والصواب بالخطأ والصحيح بالزيف وقد اتفق العقلاء على ان الكذب خصلة

مقوتة وثييمة مذمومة وخلق يذرى بصاحبه ويذهب بقيمة
المتصفين به ولم يزل من دأب الكرام أن ينتزهوا عن هذه الرذيلة
فكيف بالانبياء والرسل الذين اجتباهم الله من خلقه واصطفاهم
من بين عباده وجعلهم الأسوة والقدوة والمثل الأعلى .

والجواب أن من العلماء من أنكروا أن يكون ابراهيم عليه
الصلاة والسلام قد كذب وقالوا ان سارة كانت أخته حقيقة
ولم تكن الشرائع اذ ذلك تمنع من اقتران الأخ بأخته وأن الأمر
في ذلك قد بقى على ما كان عليه الحال في عهد آدم حتى نسخته
شريعة موسى عليه الصلاة والسلام واذا كان هذا القول غير
صحيح على سبيل الفرض ولم تكن الشرائع في عهد ابراهيم تجيز
اقتران الأخ بأخته فان سارة كانت ابنة عم له وابنة العم يطلق
عليها لفظ الأخت عادة فاذا قال ابراهيم للملك عن امرأته هذه
أنها أخته فلا يكون حينئذ قد كذب ، على أنه ليس من المستبعد
في رأى هؤلاء العلماء أن تكون هذه الحادثة أسطورة اسرائيلية
لا أصل لها الا في أسفارهم التي سادها التحريف وغلب عليها
التغيير والتبديل وقالوا في تبرير هذا الاحتمال ان سارة كانت
عندما طلبها الملك في السبعين وليس من المعقول ولا من المقبول أن
يجن ملك كبير كفرعون مصر بامرأة عجوز ولى صباها وذهب
شبابها ومضت الأيام بنضرة وجهها وروعة جمالها ومهما قيل
أنها بلغت من الحسن ما بلغت فان لم السنين أثره الذى لا يجحد
في قسماات الوجه وأساريره واذا كانت عادة بعض الملوك ترك
الحبل أمام نزواتهم على غاربه فانهم لا ينتقون من النساء غير

الكواعب الأتراب اللائى يجلبن الأنثى ويعدن الشباب فان قلت وكيف يستقيم هذا الكلام وقد ورد في الصحاح من كتب السنة أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات ؟ اثنتان منهن في ذات الله فقد قال لقومه انى سقيم ولم يكن به مرض ولا علة ، وقال بل فعله كبيرهم هذا وكان هو الذى كسر الأصنام وحطم الأوثان وهذه الثالثة التى نحن بصدد الحديث عنها في هذه المناقشة فان هؤلاء العلماء يجيبون بأن هذه الأحاديث أحاديث آحاد وقد أجمع القوم على أنه اذا وردت نصوص يوهم ظاهرها وقوع المعاصى من الأنبياء فانه يجب تأويلها اذا كانت متواترة أما اذا كانت آحادية فانها تزد على أساس أن تكذيب الرواة أولى من اتهام الأنبياء بالمعاصى والآثام ويضيف علماؤنا هؤلاء الى هذه القاعدة استبعادهم الشديد لأن يكون الكذب قد وقع من ابراهيم عليه الصلاة والسلام ولو على سبيل الندرة والقلة ويقولون كيف يتفق وصف ابراهيم بالكذب من أى لون كان وما ورد في قوله تعالى من أنه كان صديقا وأنه عليه الصلاة والسلام قد سأل ربه أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين وأى نبى من الأنبياء اتهم بهذا الوصف كما اتهم به ابراهيم وهل يستقيم فى منطق العقل أن يسميه الله صديقا والناس لا يفتأون على من العصور ينعتونه بأنه قد كذب ثلاث مرات وهل هذا هو لسان الصدق الذى جعله الله تعالى له فى الآخرين •

ومقطع القول فى هذه المشكلة هو أن الكذب الحقيقى وهو الاخبار بغير الواقع على سبيل التعمد غير جائز على الأنبياء

والرسل وغير واقع منهم كذلك وهو الخصلة المذمومة والشيمة
الممقوتة التي يربأ عنها الفضلاء ولا يدنوا منها الكرماء أما الصدق
الذي يبدو في غير صورته ويظهر في غير اطاره لغاية سامية
تبعى وهدف كريم يقصد فليس من قبيل الكذب وان سمي به على
سبيل الظاهر فلا تنافي اذا بين ما جاء في القرآن من وصف ابراهيم
بالصدق وما جاء في السنة من أنه قد كذب ثلاث كذبات اثنتان
منهن في ذات الله فان السنة تعنى الصورة بحسب الظاهر بينما
يعنى القرآن الحقيقة بحسب الظاهر والباطن جميعا وهذا
المجمع في تصورى أدنى الى الصواب من رد بعض الأحاديث
الأحادية نزولا على هذه القاعدة الكلامية التي ألمعنا اليها آنفا
فان الانكار باب اذا فتح كان ضرره أكثر من نفعه وشره أعظم
من خيره ، على أننى لا أنكر أن اليهود وغيرهم من أهل الكتاب
قد نسجوا حول ابراهيم وبنيه من أنبياء بنى إسرائيل كثيرا
من القصص وكثيرا من الأساطير والأباطيل التي لا أصل لها
ولا دليل على ثبوتها وأن أسفار العهد القديم مليئة بهذه
الخرافات التي لا يسندها نقل ولا يعضدها عقل وأن نشاط اليهود
في هذا المجال بعد ظهور الاسلام قد كان من الوضوح والظهور
بمكان وأن كعب الأخبار ووهب ابن منبه وعبد الله ابن سبأ قد
لعبوا في دنيا الأكاذيب دورا بالغ الخطورة الأمر الذي يتطلب منا
اليقظة والحذر وحسن الانتباه لما ينسب الى ابراهيم وبنيه
عليهم الصلاة والسلام من الأخبار وما يضاف اليهم صلوات
الله عليهم من الأنبياء بحيث لا نطمئن الى صحة خبر أو سلامة
رواية الا اذا كان لها أصل في كتاب الله تعالى أو في سنة

رسوله أو في مقالة صحابي كريم وكانت الطرق والأسانيد الى هذه الأحاديث وتلك المقالات بريئة من النقد سليمة من الطعن خالية من العيوب التي بينها •

نقلة السنة وعلماء الحديث وليس يكفي لقبول الخبر ووضعه موضع الثقة أن يكون مسجلا في كتاب ضخم من كتب التفسير أو معزوا الى امام حبر كابن عباس فقد جاء في كتب التفسير الصحيح وغير الصحيح ونسب الى الأئمة الكبار ما لم يرد لهم بخاطر ولم يخطر لهم على بال •

هَاجِرُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَى مَسْرَحِ التَّارِيخِ

ونعود الى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وزوجته وقد سلم من الجبار ونعم بهياته وعطاياه ولم يعد يرنق صفو عيشهما كدر أو يشوب سماء حياتهما غيم والتاريخ لا يذكر كم أقام ابراهيم وزوجته في مصر قبل لقاء الملك ولا كم أقاما بعد هذا اللقاء ولا في أية مدينة أو قرية قد ألقيا عصا الترحال ويبدو لى أن اقامتهما قد كانت بالعاصمة أو قريبا منها والا لكان بلوغ أمرهما الى الملك ووصول أخبار سارة اليه مما يصعب تصديقه والاطمئنان الى صحة روايته وتبقى اقامة ابراهيم وزوجته بعد المحنة التي مرا بها وأكد اعتقد أنها ظلت حتى اطمأن ابراهيم الى أن الرخاء قد عاد الى الشام وأن القحط والجوع لم يعد لهما في ربوعه مكان وهنا أخذ يفكر في العودة ويعد للرحيل وما هو الا أن جمع متاعه وهياً رواحله حتى أغز السير وأخذ طريقه نحو صحراء السبع وأقام في هذه البادية قليلا وحفر بها بئرا كان يستقى منه لنفسه وأهله وغنمه ونعمه ولأمر ما لم تحفظه ذاكرة التاريخ فارق ابراهيم صحراء السبع وتابع السير حتى نزل بجبرون وهناك طاب له المقام وصفت له الحياة ورضيت عنه الدنيا وراحت تسقيه شهد السعادة وتذيقه حلاوة الهناءة والدعة فقد تزوج بهاجر وهي الفتاة المصرية الجميلة التي آمنت به واطمأنت الى دينه وخرجت معه من مصر

لنقوم بخدمته وتسهر على راحته ويروى المؤرخون وكتاب السير
أن امرأته سارة هي التي نصحته بزواجها وزينت له الاقتران بها
فهي فتاة وديعة وهي جارية وضيئة وقد تقدمت بها السن ودبت
فيها الشيخوخة ولم يرزقهما الله بولد يبهج حياتهما ويؤنس
وحدثهما ويعينهما على نوائب الدهر ومفاجآت الحياة وطمعت
سارة في أن يرزق الله ابراهيم هذا الولد من هاجر اذا هو
اقترن بها فيكون لهم جميعا قررة عين وبهجة نفس وسلوى فؤاد
ولم يكن يضايق ابراهيم عليه الصلاة والسلام من اقترانه بهاجر
سوى حزن سارة وأساها وهي قرينة حياته ورفيقة وجوده
وشريكته فيما نزل به من سراء الحياة وضرائها وأفراحها
وأتراحها فلما رآها هي التي تغريه بهذا الزواج وتدفعه اليه
وتتطلع من ورائه الى هذه الثمرة الشهية وهذا الأمل الجميل أقبل
عليه راضى النفس منشرح الصدر مطمئن الفؤاد ولم يلبث الزوجان
الا يسيرا حتى أتم الله نعمته عليهما وبسط بساط فضله أمامهما
ورزقهما غلاما حايما ولا تسئل عن فرحة ابراهيم وزوجتيه بهذا
الغلام فقد جاء بعد ما برح بهم الشوق اليه وتوالى منهم الدعاء
لوجوده والقرآن الكريم يحدثنا أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام
طلبه من ربه وهو يغادر ديار قومه فارا بدينه ومهاجرا بعقيدته
وأنت ترى هذا واضحا في قوله تعالى « وقال انى ذاهب الى ربى
سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم » وما أشك
في أن اسماعيل قد ملأ دار أبيه أنسا وأفعم منزله سعادة وأنه
قد تفرس فيه فوجد فى ملامح وجهه وأسارير جبينه ما جعله
يتربق له الخير الكثير ويرجو له الذكر الجميل غير أن ظل هذه

السعادة قد أخذ ينحسر قليلا قليلا وأن نور هذه الهناءة قد طفق
يخفت يسيرا يسيرا فقد بدأت نار الغيرة تشتعل في قلب سارة
وراحت عقاربها تدب في فؤادها ولم تعد تطيق رؤية هاجر
ولا رؤية ولدها وتلك طبيعة النفوس الأنثوية لا حيلة فيها لمحتال
ولا سبيل معها لترويض أو تأديب ، ويروى الاخباريون ونقله
الآثار أن سارة قد أبت أن تساكن هاجر في منزل واحد وأنها
قد أقصتها مرة بعد مرة وأنها قد هددت بقطع عضو من أعضائها
حتى تشوهها في عين زوجها وحتى تقضى على اعجابه بها
واستراحته اليها ولسنا ندرى على وجه التأكيد اذا كانت هذه
الروايات صحيحة مائة في المائة أم أن أصابع الخيال قد
شاركت في نسجها وعاونت في حوكها ويقول الرواة ان سارة
لما ضاقت ذرعا بضررتها ولم تنطق صبرا على مساكنتها راحت
تلح على ابراهيم في أن يقصيهما وابنها عن الدار وعن المدينة بل
وعن الاقليم كله وعزمت عليه أن يلقي بهما في صحراء قاحلة
لا أنيس بها سوى الذئب ولا رفيق غير الوحوش والسباع
ويزعم الرواة أن الذي أهاج سارة وأحفظ صدرها هو ما كانت
تراه من كلف ابراهيم بولده وشدة حبه له واقباله عليه ويزعم
فريق منهم أن هذا الاصرار من سارة على اقضاء اسماعيل وأمه
قد كان بعد ولادة اسحاق فقد خيل اليها أن ابراهيم لم يكن يميل
اليه كما كان يميل الى اسماعيل وأن الغلامين تسابقا وتصارعا
ففاض اسماعيل على أخيه اسحاق فكان هذا التصميم منها على
هذا النفي وهذا الاصرار على هذا الاخراج لهاجر وولدها الى
بطون البوادي أو قلال الجبال وما أشك في أن الخيال قد كان له

دوره الظاهر في هذه الروايات وأن خروج اسماعيل من الشام قد كان قبل ولادة اسحاق وأن ابراهيم لم يخرج بزوجته هاجر وولدها اسماعيل نزولا على أمر سارة ولا تلبية لرغبتها ولا عملا على كسب رضاها واغتنام مودتها فما كان لنبي كبراهيم أن ينقاد لامرأة مهما كانت منزلتها في نفسه هذا الانقياد ولا أن يذعن لارادتها هذا الاذعان وانما كان هذا كله وحيا أوحى الله به اليه وأمر الله تعالى بتنفيذه ، وعلى كل حال فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد أعد راحلته وهياً طعاما وشرابا وأمر هاجر أن تأخذ أهبثها وتجمع متاعها وتصحبه في سفره فانه مرتحل عما قليل وما أشك في أن هاجر قد تسأل زوجها عن قصده وتستفسر منه عن رحلته وهل ينوى الذهاب الى أرض آبائه وأجداده بفدان آرام أم الى أرض آبائها هي وأجدادها بوادي النيل أم أن الله تعالى قد أمره أمرا فهو منفذه وحدد له مكانا فهو رائح اليه وما أشك في أنها كذلك قد أخبرته بأن ولدها اسماعيل مازال رضيعا وأنها تخشى عليه وعناء السفر ومتاعب التنقل وعناء الحل والترحال ولم يكن السفر في تلك الأيام سهلا ولا كان هينا وانما كان جمرة من اللظى وقطعة من العذاب وكأني بابراهيم النبي عليه الصلاة والسلام وقد طفق يحدث زوجته في لطف ويخاطبها في دعة ويطمئنها الى أنها سوف لا تلاقى في سفرها هذا نصبا وسوف لا تقاسى منه عناء ولا تعباً وأن الله

عز وجل سوف يكون هو الرفيق لهم في الرحلة والأنيس في الغربة
أما اسماعيل فإنه سوف لا يجد الا ما يزيده قوة ويملأه حيوية
وليس أعون على نمو الطفل وانبثاق العافية في شتى خلايا جسمه
من التنقل من بلد الى بلد ومن بيئة الى بيئة الى غير ذلك من
الحديث الطيب والكلام المعسول • وامتطى ابراهيم راحلة
وامتطت هاجر وابنها راحلة ثانية وانطلقت هذه القافلة الصغيرة
تغز السير وتتابع الرحلة وتنتقل من بلد الى بلد ويروى المؤرخون
وكتاب السير أن جبريل عليه السلام هو الذي كان يقود ابراهيم
وزوجه فان الله تعالى قد حدد له الغاية وترك روحه الأمين
يوجهه اليها ويقول الاخباريون أن ابراهيم كان كلما علا جبلا
أو هبط واديا أو نزل بمكان مقفر أو معشب سأل جبريل أهنا
محط الرحال ؟ أهنا نهاية السفر وكان جبريل يجيبه بالنفى ويأمره
بالصبر حتى اذا كانوا بواد غير ذى زرع عند مكان البيت المحرم
قال له جبريل يا ابراهيم هنا أمر الله تعالى أن تحط الرحال وأن
تلقى عصا التسيار وأن تدع حبيبك وتترك نجيبك وذهب الملك
الكريم الى مكانه في السماء ونظر ابراهيم الى هذه البادية الجرداء
التي لا نبات فيها ولا ماء والتي لا يسكنها غير الوحش ولا يألّفها
سوى الإفاعى التي تتلمظ من شدة سمومها والتي بيدو الموت في
فحيحها ويبرز من فوق أنيابها وكاد قلبه أن ينفطر وأوشكت نفسه
أن تتمزق لقد أمر أن يترك بهذا القفر زوجته هاجر وابنه اسماعيل
ولا بد له من تنفيذ هذا الأمر بل لا بد له من الرضا به والصبر عليه

ونظر ابراهيم الى زوجته ومد يده الى ولده فعانقه وقبله وقال لهاجر هذه قربة ماء فاشربي منها اذا ظمئت وهذا مزود به تمر فتبلغني منه اذا جعت وجذب حبل ناقته وكنتم دموعا أوشكت أن تنهمل علي خده وقال وأما أنا فأستودعك الله ويروى الاخباريون وكتاب السير أن هاجر قد تعلقت بثياب زوجها وأخذت بخطام ناقته وراحت تسأله صائحة وقد انهملت عبراتها وانهمرت دموعها لن تتركنا بين الجبال ؟ للوحوش تفترسنا أم للسباع تمزق لحومنا أم لهوام الأرض تفرغ سمومها في أجسامنا ؟ ان المكان كما ترى سملق أغبر وسببب أعفر ليس به أنيس يجيرنا من بأس الدهر اذا نزل بنا ويعصمنا من كيد الزمن اذا هبط بساحتنا وهذا الطعام القليل اذا نفذ من أين نحصل على القوت ؟ ومن أين نجد الماء اذا فرغ هذا السقاء ؟ و ابراهيم واجم صامت لا يجيب بكلمة ولا ينبس ببنت شفة ولما رأت هاجر أن الحزن قد عقد لسانه وأن الأسى قد حبس الكلمات في فمه قالت له وكأنها تعتذر عنه آلهه قد امرك بهذا وأجاب ابراهيم نعم الله قد أمرني بهذا وثبتت هذه الكلمة فؤاد هاجر وأطمأنت نفسها وأسرت الرضا في أعماق فؤادها وقالت اذا كان الله هو الذى أمرك بذلك فسوف لا يضيعنا وأخذ ابراهيم طريقه نحو الشام وبقيت هى وحيدة تفكر فى حالها وفيما يمكن أن يصير اليه أمرها وما أشك فى أنها قد أحست بالرهبة وشعرت بالفرق والخوف عندما أخذت الشمس طريقها نحو الغروب وراح الليل

يسدل ستائره قليلا قليلا على قبة الكون حتى أظلمت الدنيا
واسود وجه السماء وخيل اليها كأن الشياطين قد احتشدت لكيدها
واحتمعت للنيل منها وانزال الشربها وراحت تتسمع الى أصواتها في
قصف العواصف ودوى الرياح وبانت ليلتها كلها ساهرة لم تتم
وكان كلما بكى الطفل حلت وساق سقائها وأروته ومازالت به
ترضعه تهدده حتى يسلم نفسه للكرى ويترك أجفانه للنوم
ويقول المؤرخون وظلت هاجر تأكل من مزودها حتى نفذ ما فيه
من التمر وتشرب من قربتها حتى فرغ ما فيها من الماء ثم تراءت
أمامها أشباح الجوع والظمأ وكلما اشتد سغبها جف اللبن في ثديها
حتى لم يعد به شيء يمتصه الطفل الامر الذي جعله يصيح ويبكى
ولا تملك له أمه شيئا سوى اللهفة تخرج من صدرها حارة ملتبهة
والدموع تسيل على خدها غزيرة متدفقة ولما أيقنت أن الطفل ميت
لا محالة لم تستطع رؤيته وهو يلفظ آخر أنفاسه وانطلقت تعدو
وتصعد فوق الصفا حتى اذا استوت على قمته راحت تدعو ربها
أن يكشف عنها هذا الضر وأن يدفع عنها هذا البلاء وحملت
بعينيها لعلها ترى انسانا يعينها ولو بقطرة ماء عساها تعيد الى
الطفل حياته وترد اليه روحه ونزلت تعدو حتى تجاوزت الصفا
الى المروة وفعلت من فوق قمته ما فعلته من قبل وهى على الصفا من
التضرع والبكاء والابتهال والدعاء وهكذا راحت تتردد بين الجبلين
مرة بعد مرة حتى اذا كانت فى السابعة لمحت سحابة مقبلة من

بعيد ماكادت تدنو من المكان حتى تبدت على حقيقتها وظهر لها
 جبريل عليه الصلاة والسلام وقد ملأ بجناحيه ما بين المشرق
 والمغرب واذا به يدعوها اليه ويناديها لتقبل نحوه ويروى الاخباريون
 أنه ضرب بجناحه الأرض من تحت عقب الغلام فتفجر الماء ثريا
 يجري وأسرعت هاجر وراحت تغرف بيدها وتملأ سقاها وكأنما
 خيل اليها لفرط ظمئها أنها لم تر الماء من قبل وأنها سوف لا تراه
 من بعد وأخذت تأتى بالرمال وتضع حول الماء حتى لا يذهب هباء
 في الثرى ولا يضيع سدا في التراب ويقول رسول الله صلى الله
 عليه وسلم معلقا على هذا الخبر رحم الله أم اسماعيل لو لم تحط
 العين بما أحاطتها به لظلت تجرى متدفقة الى يوم القيامة وكأنما
 كان انبثاق الماء من بين أطباق الثرى فاتحة خير وبداية نعمة
 فقد شربت هاجر وشرب ولدها اسماعيل وأخذ الطير يحوم حول
 المكان وكانت قبيلة جرهم تقيم عن كئيب من مكة وكانت تعاني
 ما تعاني من قلة الماء والنبات وما ان شاهدت هذا الطير الحائم
 حتى قال قائلها ان هذا الطير لا يحوم الا حول الماء وعهدنا بهذا
 المكان أنه سملق قفر لم تتبجس فيه عين ولم ينضج فيه بئر
 وأرسلوا رائدهم فعاد وقد عم السرور قلبه وأنبأهم بأن امرأة
 وطفلا رضيعا يقيمان وحدهما وبين أيديهما عين نضاجة وأسرع
 القوم حتى اذا شاهدوا هاجر عرضوا عليها أن يقيموا معها وأن
 يشربوا من مائها وقبلت هاجر هذا العرض ولم تشترط عليهم سوى
 ألا يكون لهم في هذه العين حق يطالبون به فهي ملك خاص لها
 ولهذا الطفل الرضيع وهكذا عمر المكان ودبت الحياة فيه ووجدت هاجر

وطفلها الأنيس والصديق والصاحب والرفيق ومضت الايام
 واسماعيل عليه الصلاة والسلام ينمو ويكبر حتى اشتد عوده
 واكتملت رجولته وأصبح قادرا على السعى من أجل الرزق والكفاح
 في سبيل القوت وأمر الله ابراهيم أن يبنى له بيتا يكون مثابة لعباده
 وأما لزواره ومسجدا يذكر فيه اسمه ويرفع فيه ذكره وتتلى فيه
 آياته وسأل ابراهيم ربه وأين مكان هذا البيت الذي يريد منه
 أن يعلى أركانه ويرفع قواعده وأنزل الله عليه جبريل فرفعه حتى
 انتهى به الى حيث أودع زوجته وولده وما أشك في أن ابراهيم
 قد كان مشغول البال بهما وأنه لم يكن يفتأ يفكر فيهما ويسائل
 نفسه عما يمكن أن يكون قد أصابهما وما أشك في أنه قد ابتهج
 عندما رأى المكان قد عمر ودبت الحياة فيه وهوت اليه أفئدة لم
 تكن لتفكر في اتخاذ منزلة لولا هذه العين التي فجرتها الرحمة
 الالهية وأجراها اللطف القدسي ويقول الاخباريون أن ابراهيم
 عليه الصلاة والسلام رأى اسماعيل مستندا الى حجر وهو يبصر
 نبلا له وأن كلا من الولد وأبيه قد عرف ربح صاحبه وهدته اليه
 الفطرة الصافية والطبيعة الطاهرة وأن اسماعيل وابراهيم قد
 تعانقا في شوق وتدانيا في لهفة وراح كل منهما يضم صاحبه ويقبله
 وقد سالت دموعهما واشتد وجيب قلبهما وراح كل منهما يقص على
 الاخر ما أصابه منذ أن قضى الله عليهما بالفراق حتى جمع بينهما
 هذا اللقاء ولست أدري أكانت هاجر ما تزال على قيد الحياة أم لا
 فقد رفع التاريخ قلمه عن هذا الأمر ولم يخط فيه كلمة من سطر
 بل ولا حرفا من كلمة وكل ما ذكره الاخباريون حول هذا الموضوع
 هو أن هاجر قد ماتت بعد أن شب ولدها اسماعيل وأنها قد دفنت

في مكة ولكنهم لم يذكروا لنا عما اذا كان ابراهيم قد التقى بها
بعد أن بوءها وابنها مكة أم لا وعما اذا كان موتها قد كان بعد
زواج اسماعيل أو قبله وأياما ما كان فان ابراهيم عليه الصلاة
والسلام وبعد أن فرغ من التحدث الى ولده بما كان من أمره بعد
فراقه وفراق أمه وبعد أن استمع الى قصة ولده في هذه الفترة
ذاتها أنبأه بأن الله تعالى أمره أن يبني له بيتا وأنه قد حدد له
مكانه وهو بطبيعة الحال لا يستطيع بناءه وحده ويريد منه أن
يعينه في رفع قواعده وتوطيد أركانه وقبل اسماعيل هذه المهمة
بنفس راضية وصدره منشرح وأرى أباه منه ما أبهج خاطرهم وأدخل
السرور على فؤاده •

تَارِيخُ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ

ولا خلاف بين المسلمين في أن البيت الذي أمر الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببناؤه هو البيت الحرام وأنه هو أول بيت وضع للناس وأن المسجد الأقصى هو البيت الثاني بعد بنائه وأنت ترى هذا واضحا في قوله تعالى « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم » وتراه واضحا كذلك في قوله عليه الصلاة والسلام وهو يجيب أحد أصحابه وقد سأله عن أول بيت وضع للناس فقال : المسجد الحرام قال الراوى ثم أى فقال عليه الصلاة والسلام ، ثم المسجد الأقصى قال فكم بينهما قال أربعون سنة فالآية والحديث صريحان في أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس غير أنهما لم يثبيرا الى الوقت الذي بنى فيه ومن أجل هذا رأينا العلماء يختلفون في تحديد هذا الوقت فيرى فريق منهم أنه بنى قبل خروج آدم من الجنة وقبل هبوطه الى هذه الأرض وأن الملائكة هي التي كانت تطوف حوله وتعبد الله عنده وأنه لما هبط آدم على ظهر هذا الكوكب أمره الله تعالئ بزيارته وأن الملائكة هي التي دلته عليه وهي

التي علمته المناسك التي لا بد منها في أداء الحج وقد ظل البيت
 الحرام هذا في مكانه من مكة حتى كان الطوفان وعند ذلك
 رفعه الله اليه حتى علم ابراهيم عليه الصلاة والسلام
 مكانه وأرشده الى موضعه وهذا الفريق من العلماء يستند في
 مقالاته هذه الى عدد ضخم من الأحاديث المسندة
 والمرسلة والموقوفة والمرفوعة والى آيات كريمات من الكتاب
 الحكيم غير أن الأحاديث التي استشهدوا بها لا تخلوا من
 الجدل ولا تسلم من النقاش لا في الطرق والأسانيد وحسب
 ولكن فيهما وفي المتن أيضا وأنت اذا قرأتها رأيت فيها أثر
 الصنعة ومسحة الخيال الأمر الذي يتبين لك معه أن أكثرها
 مختلف ولا يمكن أن يكون قد ورد عن الرسول صلى الله عليه
 وسلم ، بقيت الآيات التي ساقها هذا الفريق من العلماء
 للاستدلال بها على صحة ما يذهبون اليه ومنها قوله تعالى :
 « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا ،
 وقوله : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند
 بيتك المحرم » ومعلوم أن الآية الأولى لا تصلح دليلا لهم
 فهي لا تذكر سوى أن الله تعالى قد بوأ ابراهيم مكان البيت
 ولا يلزم من تبويئه المكان أن يكون البيت قد كان موجودا
 من قبل ابراهيم بل ان ذكر المكان هنا يثبت عكس ما قرروه وأما
 الآية الثانية فانها كانت تصلح دليلا لهم لو أن المفسرين كانوا
 متفقين على أن ابراهيم قد ردد هذه العبارة فور ترك ولده

وأمة بين جبال مكة وقبل بناء البيت ولكن ذلك لم يكن فان من
المفسرين من يرى أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام انما ردد
هذه العبارة بعد تزوج اسماعيل وبناء البيت وبعد أن غادر
ابراهيم مكة للمرة الأخيرة وهذا الاتجاه في تصورى هو أدنى
الى الحق وأقرب من الصواب كما سوف أبين هذا فيما بعد،
ويبقى الفريق الثانى من العلماء وهم الذين يرون أن ابراهيم
هو أول من بنى البيت الحرام وأن هذا البيت لم يكن له وجود
من قبله وحجتهم في هذا أن القرآن الكريم قد خلا تماما من
أية اشارة تفيد أن الملائكة هى التى بنت هذا البيت وأنها
تطوف حوله وتعبد الله عنده بل ان قوله تعالى : « ان أول
بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » يثبت
عكس هذا تماما فانه يصرح بأن البيت قد وضع للناس ولو
كانت الملائكة هى التى وضعتهم ومارست العبادة والطواف عنده
لكان موضوعا لها ومبنيا لتسبيحها وتحميدها وما ورد من حج
آدم الى البيت الحرام والتقاءه بحواء على جبل عرفة وازدلافه
اليها بالمزدلفة لا يقوم على أسس تثبت للنقد وتقوى على
مواجهة النقاش والجدال والأمر كذلك بالنسبة لما روى من رفعه
عند الطوفان واستقراره بعد ذلك فى السماء والأصل فى مثل
هذه الأشياء العدم أما الوجود فانه يحتاج الى حجة ثابتة ودليل
تطمئن اليه النفس ويثق به العقل وليس ذلك من الأمور السهلة
ولا هو مما يستطيع القائلون بوجود البيت الحرام قبل ابراهيم

بأنهم يستندون اليه على أن هذه المسألة ليست من العقائد
التي يجب الايمان فيها بنفى و باثبات وسواء أكنت من الذين
يرجحون أن ابراهيم هو أول من بنى البيت الحرام أو من
الفريق الذى يثبت العكس ويقرر بأنه عليه الصلاة والسلام
كان مسبقا اليه فأنت سليم العقيدة صحيح الايمان ولو
كانت هذه القضية مما يتوقف على القطع فيها خير عاجل أو
آجل لما تركها القرآن الكريم بدون حكم حاسم ولا رأى قاطع
بل لما أغفلها تماما ولم يعرض لها لا بعرض ولا بدرس ، ونعود
الى ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام فنذكر أنهما
قد اتفقا معا على تلبية الأمر الالهى وتنفيذ المشيئة القدسية
التي أفضى ابراهيم باتجاهها الى ولده وراحا معا يجمعان
الصخور والأحجار وسائر ما يحتاج اليه البيت من مواد البناء
ووسائله التي كانت معروفة فى ذلك الزمان والقرآن الكريم
يقص علينا هذا الخبر فى سورة البقرة المدنية النزول فيقول
تعالى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا
تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك
ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت
التواب الرحيم • ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم
آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز
الحكيم » وأنت اذا استعرضت هذه الآيات البينات رأيت
ابراهيم وولده وهما يرفعان قواعد البيت ويوطدان دعائمه
وينصبان أحجاره حجرا بعد حجر ولبنة بعد لبنة ولسانها

يلهج بذكر الله ويجأر بهذا الدعاء الطيب وهذا الابتهاج الكريم
ربنا تقبل منا عملنا فأنت السميع لدعائنا وأنت العليم بنياتنا
ربنا واجعلنا مسلمين لك نمثل لأمرك ونهيك ونذعن لقولك
وحكمك ونرضى بقضائك وبلائك واجعل من ذريتنا أمة تنهج
هذا النهج وتسلك هذا الطريق وأرنا شعائر الحج ومناسكه
وأركانه وواجباته واغسل الحوية منا بالتوبة وامحو الخطيئة
بالمغفرة انك أنت الذى تقبل رجعة التائبين الى بابك وتغفر
ذلة المذنبين اذا دنوا من رحابك ويختم ابراهيم واسماعيل هذه
الدعوات الصالحات بهذا الرجاء العذب وهذا الأمل الجميل
وهو أن يبعث الله سبحانه فى هذه الأمة رسولا يكون من بين
أبنائها ومن صفوة أحسابها وأنسابها يتلو عليها آياته ويعلمها
الكتابة التى تفتح أمامها آفاق العلم وأرجاء المعرفة والحكمة
التي تمكثها من رسم سياستها واحكام خطتها وحسن التدبير
لشئونها وأمورها ، ويطهر بالايمن منها القلوب، وينقى باليقين
منها الأرواح والنفوس ، ويروى المؤرخون أن اسماعيل عليه
الصلاة والسلام قد أخلص الطاعة لأبيه والعون له والامتثال
لأمره حتى اذا فرغ بناء البيت وجاء وقت وضع الحجر
الأسود طلب ابراهيم من ولده أن يبيغه حجرا حدد له علاماته
وأوضح له صفاته وانطلق اسماعيل فى الجبل يبحث عن هذا
الحجر وجاء بصخرة غير التى كان قد طلبها منه أبوه وهو
يظن أنه قد وفى بالشرط وأتى بما هو مطلوب منه واقترب
اسماعيل واذا هو يرى أباه قد وضع الحجر الذى كان قد

طلبه منه في مكانه وسأل اسماعيل متعجبا عن جاءه به وأخبره
أبوه بأن الذي جاءه به هو الله الذي لم يكل أمره اليه ويزعم
الاخباريون أن هذا الحجر قد كان في أول أمره ياقوتة حمراء
أو لؤلؤة بيضاء وأنه قد نزل من الجنة وهبط من السماء وأنه
كان يلمع كما تلمع أشعة الشمس وينير كما تنير أضواء القمر
وأن معاصي الناس هي التي أصابته بهذا السواد وهذه أخبار
لا تستند الى حجة ولا تتركز على دليل ولا مدخل لها في
العقيدة والايمان وأنت بالخيار بين تصديقها أو تكذيبها وان
كان رجع العلم الى الله في هذا الشأن أقرب الى السلامة وأبعد
عن الشبهة وأدنى من الصواب •

وما أروع قول عمر وهو يستلم هذا الحجر ويقبله ويرى
الناس من حوله يستلمونه ويقبلونه، والله اني لأعلم أنك حجر
لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقبلك ما قبلتك فقد نفى عن هذا الحجر القدرة على
الانفع والضر ورجع العلم في شأنه الى المولى عز وجل وأشار
الى العلة التي من أجلها راح يستلمه ويقبله وهي الطاعة
المطلقة للرسول عليه الصلاة والسلام ، واقتفاء آثاره في أقواله
وأفعاله وان لم يتبين له وجه الحكمة ولم تتضح لعينيه ملامح
الحقيقة فان في تعاليم الله أشياء يختبر بها التأمل والتفكير
وأشياء تبطل بها الطاعة وحسن الانقياد ولهذا فانك ترى في
الكتاب والسنة من العبادات من كشفت أسرارها وأميط اللثام

عن وجه الحكمة فيه ومنها ما لم تمط عنه الأستار ولم ترفع
 عن وجهه الأقنعة وكأنما شرع الشطر الأول لبيان أن هذا
 الدين انما يقوم على الحجة والبرهان وشرع الشطر الثانى
 لاختبار قوة العقيدة وعمق الايمان واقرأ فى هذا ان ثبتت
 قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات
 هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ
 فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم
 تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من
 عند ربنا وما يذكر الا أولوا الأبواب ربنا لا تزغ قلوبنا بعد
 اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ربنا انك
 جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد » فأنت
 ترى فى هذه الآيات البيّنات أن الله تعالى قد قسم الكتاب
 العزيز الى محكم ومتشابه وبين أن الذين فى قلوبهم مرض هم
 الذين ينتبعون هذا المتشابه لا طلبا للحق ولا سعيا الى العلم
 ولكن ابتغاء للفتنة وتظاهرا بالتأويل وأن الراسخين فى العلم
 هم الذين يؤمنون بهذا المتشابه ويفوضون أمر العلم بحقيقته
 الى الله لأنهم سلكوا من قبل وهم ينتبعون المحكم من القرآن
 طريق المنطق وسبيل البرهان فاهتدوا الى أن السر فى المحكم
 هو شحذ العقول والسر فى المتشابه هو اختبار الايمان فدعوا
 الله أن يثبتهم عليه وأن يعمقه فى أنفسهم وأقنئتهم وعلى هذا
 الاساس فان الحجر الأسود حجر كسائر الأحجار الأخرى
 التى بنى منها البيت الحرام وما هو الا رمز للوحدة وتضامن

الكلمة شأنه في ذلك شأن القبلة تماما علم جامع وراية ينتظم تحتها الشمل ويلتئم الجمع ويتحد الهدف وتتماسك الكلمة وأتم ابراهيم واسماعيل بناء البيت وأكملا مرافقه وبقي أن يعلمهما ربهما المناسك والشعائر التي طلبا تعلمها منه وراحت الأوامر تتوالى على ابراهيم في هذا الشأن وأنت ترى هذا في قوله تعالى « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » فأنت ترى في هذه الآية دعوة من الله تعالى لابراهيم أن يرفع في مكة لواء التوحيد ، ويدك صرح الشرك والالحاد، ودعوة ثانية الى أن يطهر البيت الحرام ويعده لاستقبال الطائفين والقائمين والراكعين والساجدين ودعوة ثالثة انى أن يؤذن بالحج وهو القصد الى الله تعالى والزيارة لبيته ويروى الاخباريون أن ابراهيم سأل ربه كيف يؤذن بالحج والمكان قفر والجبال محيطة به ومرتفعة فوق أرضه ومن ذا الذى عسى أن يسمعه والى أى حد سيبلغ صوته وأى جدوى في هذا النداء وما من سميع ولا مجيب وأمره ربه بأن يؤذن وأن يعلى صوته بالأذان ووعدده بأن الناس سيحييونه ويلبون نداه وأنهم سيأتونه من كل فج رجالا وعلى كل ضامر ويقول

الآخباريون أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام رفع عقيرته
وولى وجهه شطر كل جهة من جهاته الأربعة وراح ينادى أيها
الناس إن الله تعالى يأمركم بالحج فحجوا ويدعوكم إلى زيارة
البيت فأجيبوا وأن نداءه هذا قد وصل إلى الذراري في
الأصلاب فسمعت الأنفس ووعد الأرواح وأنه ما من نفس
رن في أذنها هذا النداء إلا وأجابته قائلة لبيك لبيك وأن
النفوس التي لم يبلغها هذا الصوت هي التي لم يكتب لها
الحج لأنها لم تسمع ولم تستجب ونداء إبراهيم بالحج كما
نرى ثابت بالقرآن فالإيمان به واجب والارتياح فيه كفر
وهو يثبر فيما يثبر إلى أن زيارة بيت الله والحج إليه سوف
تبقى على كر الدهور ومر العصور ما بقى على الأرض آدمى
وما أقام فيها إنسى •

إِبْرَاهِيمُ يَوْمُ ذَبْحِهِ وَوَلَدِهِ

ومن الطبيعي بعد الأذان بالحج والدعاء اليه أن يعلم الله إبراهيم وولده كافة المناسك وهذا هو ما كان فقد هبط الوحي وراح يتنقل بهما من منسك الى منسك ومن مشعر الى مشعر حتى اقترب يوم النحر وهو اليوم الذي تقرب فيه القرابين وتذبح فيه الذبائح لله الذي سوف لا يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى من عباده والخشية من خلقه والشكر على ما رزق من النعم وما وهب من المنن وما أعطى من الأفضال وفي هذه الفترة وبينما كان إبراهيم يغط في النوم رأى رؤيا أهمته وأقلقتة وأدخلت الأسى والحزن في أعماق فؤاده وكانت هذه الرؤيا خاصة بولده الذي لم ينعم عليه به الا بعد ما طعن في السن وأمعن في الشيخوخة والذي لم يكذب يفرح بأنسه ويسر بقربه حتى أمره ربه أن يلقيه وأمهين الصحارى والجبال بلا طعام ولا شراب ولا رفاق ولا صحاب والذي عاونه في بناء البيت حتى أتمه وساعده في رفع قواعده حتى أكمله وأصبح إبراهيم وهو لا يدري ماذا يقول لولده لقد رأى في منامه أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء حق ما في هذا شك وهي جزء من أربعين جزءا من النبوة بالنسبة لغير الرسل من سائر عباد الله، أما بالنسبة لهم هم فهي وحى لا بد من تنفيذها والانصياع له وكان إبراهيم قد اقترب هو وابنه من الصفا

ولم يكن معها في هذا المكان أحد وهنا نظر الأب الى ابنه
في مرارة وحملق فيه في حسرة وقال له يا بنى انى أرى في
المقام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى وما أشك في أن الحزن
قد كان يعتصر قلب الوالد وهو يوجه الى ولده هذه الكلمات
التي تسيل أسى وتقطر ألماً وما أشك في أن اسماعيل قد أذهبه
كلام أبيه وحيره منطقته وأسلمه الى التأمل والتفكير انه يعرف
أن أباه يحبه ويفيض قلبه حذبا عليه واشفاقا به وهو اذا كان
قد ألقاه بين جبال مكة وصحراها بلا أنيس ولا مجير فانه ام
يفعل ذلك عن أمره ولم يأت به بمحض ارادته ومشيعته وانما
الله تعالى هو الذى أوصى اليه به لحكمة بالغة وغاية سامية
وهدف كريم والآن يعرض عليه ما يعرض وهو نبى لا ينطق
عن الهوى ولا يصدر الا عن وحى انه اذا مأمور من الله ولا
يسعه أن يخالفه ويرفع اسماعيل وجهه وينظر الى أبيه ويجيبه
قائلا «ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين»
وتتلج هذه العبارة صدر أبيه وتدخل الطمأنينة الى أعماق
قلبه فقد رأى من ولده حسن الاستسلام للقضاء وحسن
للصبر على البلاء وكيف أنه لم يتردد في الانقياد لأمر ربه
والامتثال لطاعة مولاه وراح الوالد وولده يتمان الأمر وينهيان
الشوط ويتابعان الخطى الى آخر الطريق ولما دنت ساعة
التنفيذ وأسلم ابراهيم واسماعيل لهذا الاختبار الرهيب
ففسيهما وأسلسا لهذا الامتحان العصيب ارادتيهما أشفق
اسماعيل على أبيه مما يمكن أن يكابده بعد ذبحه من الألم اذا

هو تلطخت ثيابه بدمه وعانى في نحره والاجهاز عليه فقال له بصوت حزين يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن واشحد شفرتك وأسرع بمر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على فان الموت شديد واذا أتيت أمى فاقرئها منى السلام وان رأيت أن ترد قميصى اليها فافعل فانه عسى أن يكون أسلى لها عنى وقال له ابراهيم نعم العون يا بنى أنت على ما أمر الله به وفعل ابراهيم ما أمره ابنه وأقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى حتى استتبع الدموع تحت خده ووضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم يعمل السكين شيئا قال الاخباريون وضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه فقال عند ذلك الابن يا ابت كبنى على وجهى فانك ان نظرت الى وجهى رحمتنى وأدركتك على رقة تحول بينك وبين أمر الله وهكذا تل ابراهيم ولده للجبين ووضع على حلقه السكين ونسى من أجل الله كل ما كان يربطه به وكل ما كان يأمله فيه ولو جاز للجماذ أن يبكى لبكت من هول هذا المشهد النجوم في السماء والطيور في الهواء والوحوش في الغبراء والأسمك في الماء ويروى الاخباريون أن حملة العرش وأملاك الأفق وكافة الكائنات ضرعت الى ربها ودعت مولاهما أن يرحم هذا الغلام الصغير وهذا الشيخ الكبير فقد ابتلى فصبر وأمر فأطاع وكلف كل منهما بما تنوء بحمله الجبال فرضى بالقضاء وانقاد للبلاء وعند ذلك نادى مناد بين الارض والسماء يا ابراهيم اكفف

يدك وارفع مدينتك فقد صدقت الرؤيا ووفيت بالأمر وأما أنت
يا اسماعيل يا أبا الفداء ويا خير الأبناء لقد قبلت التضحية
وجدت بالروح وكنت الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة والمثل
الذى ترويه الأجيال للأجيال وتحكيه الأحقاب للأحقاب في
حسن الطاعة لله وحسن البر للوالدين قال الاخباريون ونظر
الأب وولده فاذا كبش أقرن أعين يفيض لحما وشحما وقد
أقبل اليهما من فوق سبير ومن خلفه جبريل يردد قوله تعالى
« يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا
لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم » وقام ابراهيم عليه الصلاة
والسلام الى هذا الكبش فذبحه شكرا لله على فداء ولده
وحمدا له على بناء بيته وتوارث الناس هذه السنة عن ابراهيم
فكان النحر يوم العيد الأكبر في بلد الله الحرام وفي كل بقعة
يدين فيها الناس بالاسلام ويروى المؤرخون وكتاب السير
أن الكبش الذى ذبحه ابراهيم قد هبط عليه من الجنة وأنه
كان يرعى فيها أربعين سنة ويروون أن الشيطان لما علم ما
نواه ابراهيم عليه الصلاة والسلام من ذبح ولده ذهب الى أمه
وسألها عن زوجها وولدها وأنها أخبرته بأنهما قد خرجا
يسعيان في تحصيل القوت وجمع الرزق وأنه قال لها انهما
لم يخرجوا لذلك وانما عزم زوجها على ذبح ولدك فقوى
فحولى بينه وبينه وأن هاجر قالت له عند ذلك ان ابراهيم
الا يمكن أن يكون قد انتوى هذا العمل فهو أب كريم ووالد
رحيم وهو اذا كان قد انتوى هذا حقا فانما يمثل أمرا تمد
أوحى به اليه وليس لى ولا له ولا للغلام الا الامتثال لأمر

الله والنزول على حكمه وذهب الشيطان كاسف البال محزون
 الفؤاد حتى التقى باسماعيل وقص عليه ما نواه أبوه وراح
 يغيره به ويحرضه عليه وكما أذعنت الأم للقضاء ورضيت به
 أذن الابن كذلك للقضاء ورضى به ولم ييأس الشيطان وذهب
 الى ابراهيم يجرب معه حظه وقال له يا ابراهيم ماذا تريد
 والى أين تذهب وما هذه المدية التي في يدك وأجاب ابراهيم
 بأنه رأى في المنام أنه يذبح ولده وأنه ماض لتنفيذ أمر ربه
 وراح الشيطان يقول له هذه أضغاث أحلام وما كل حلم يصدق
 ولا كل رؤيا قد صدرت عن المولى سبحانه وتعالى غير أن
 ابراهيم قد طوى عنه كشحا وحاد عن طريقه ازدراء واحتقارا
 ويقول الاخباريون ان هذه القصة هي السبب الذي من أجله
 كان رمى الجمار وكان ثلاث مرات ولم يكن أكثر ولا أقل
 والعقل لا ينفى هذه الواقعة ولا يثبتها وإنما هي في تصووره
 ممكنة والامكان لا يستلزم الحدوث والآثار التي نقلت هذه
 القصة لا تخلو من الجدل ولا تسلم من النقاش والنقرآن
 الكريم يحدثنا عن قصة انفداء في سورة الصافات فيقول تعالى
 « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين
 فبشرناه بسلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى
 فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر
 ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين
 وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي
 المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا
 عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين

وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين» ، وواضح من هذه الآية أن قصة الذبح قد وقعت بعد أن كسر ابراهيم الأضنام وبعد أن نجا من النار وبعد أن غادر ديار قومه بفدان آرام وواضح منها كذلك أن ابراهيم قد دعا ربه وهو في طريقه مهاجرا بدينه أن يهب له غلاما صالحا وقد استجاب الله لهذا الدعاء وبشره بغلام حليم حتى اذا شب هذا الغلام وتجاوز الطوق وبلغ السعى ابتلاه الله تعالى بذبحه وكان ما كان مما سجله القرآن في شأن كل من الشيخ والغلام ولأن هذه الآية لم تسم هذا الذبيح ولم يرد له اسم في غيرها من الآيات اتى تناولت ابراهيم وبنيه فان العلماء قد اختلفوا في هذا الذبيح أهو اسماعيل أم اسحاق فذهب فريق منهم الي أنه هو اسحاق واستدل على رأيه هذا بأدلة أحدها أن ابراهيم طلب من ربه وهو في طريقه الى الشام بعد فراقه لأهله ووطنه غلاما صالحا وأن الله تعالى قد بشره بغلام حليم وأن هذا الغلام الذى بشره به هو الذى أمره بذبحه عند ما بلغ معه السعى وكل آية وردت في القرآن الكريم بتبشير ابراهيم فانها لا تعنى غير اسحاق وأنت ترى هذا واضحا في قوله تعالى « فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » •

وتراه واضحا كذلك في قوله سبحانه « قالوا لا تخف انا

أرسلنا الى قوم لوط وامراته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق
ومن وراء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا
بعلى شيئا ان هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله
رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » وحيث
أن البشارة في القرآن الكريم لم تكن الا باسحاق فهو الذبيح
اذا وهو مرجع الضمير في قوله تعالى « فلما بلغ معه السعى » •

وثانيها أن ابراهيم قد أعطى الله عهدا لئن رزقه غلاما
لينحرنه ابتغاء وجهه وتقربا به اليه وأنه لما أعطى هذا الغلام
أوحى الله اليه أن يوفى بنذره وقد جاء في الأحاديث المسندة
والمرسلة أن هذا الغلام هو اسحاق •

وثالثها • ما روى في بعض الآثار من أن الملك لما أبى أن
يؤاكل يوسف عليه الصلاة والسلام قال له أترفض أن تؤاكلني
وأنا يوسف بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله
ابن ابراهيم خليل الله أضف الى هذا كله أن أسفار العهد
القديم قد صرحت بأن اسحاق هو الذبيح وأن أمه سارة قد
حزنت عندما علمت بأن أباه قد ذهب به ليذبحه وعلى الرغم
من أنه قد نجا فان هذا الألم الذي أفرى كبدها واعتصر قلبها
قد أودى بها فماتت بعد يومين أو أيام من وقوع هذه الحادثة
وقد عرض شيخ المؤرخين والمفسرين أبو عبد الله محمد
ابن جرير الطبري وجهة النظر هذه وانحاز اليها وجد في
تشبيتها وتأبيدها وادعى أن القرآن وان لم يصرح باسم الذبيح

الا أنه قد أوما إليه بما لا يدع مجالاً للشك ولا يبقى مكاناً
 للريبة وبنى رأيه هذا على الدليل الأول الذي صدرنا به أدلة
 من يرون أن الذبيح هو اسحاق وان تعجب فعجب ما ادعاه
 ابن جرير من أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد نقل عنه
 القولان معا فنقل عنه أن الذبيح هو اسحاق ونقل عنه أنه هو
 اسماعيل وأنت خير بأن النقل شيء وصحته شيء آخر وليس
 من المقبول ولا من المعقول أن يكون هذان النقلان صحيحين
 والا لكان الرسول عليه الصلاة والسلام مضطربا يقول الشيء
 ونقيضه ولا يتصور هنا دعوى النسخ لأن الواقعة واحدة
 وصاحبها لا يمكن أن يكون الا أحد الأخوين فاما أن يكون هو
 اسحاق أو اسماعيل وعلى هذا الأساس فرسول الله صلى الله
 عليه وسلم اما أن يكون قد ترك الأمر من غير تحديد للاسم كما
 فعل القرآن الكريم واما أن يكون قد سمي الذبيح وحينئذ
 فلا بد وأن يكون قد وقف عند أحد الأخوين لم يعده ولم يرم
 عنه ويبدولى أن الاحتمال الثاني هو الأقرب الى الوقوع فان
 أسفار العهد القديم قد قطعت بأن الذبيح هو اسحاق وقد
 عايش الرسول عليه الصلاة والسلام يهودا في المدينة وعاشرهم
 وناقشهم وحاوهم وما أظن أن هذه الحادثة قد مرت من غير
 أن يعلق عليها يهود ومن غير أن يقول فيها الرسول صلوات
 الله وسلامه عليه الكلمة الفاصلة • وما أشك في أن الأحاديث
 التي نقلت عنه صلوات الله وسلامه عليه أن الذبيح هو
 اسماعيل هي الصحيحة وحجتنا في هذا أولا أن الله تعالى

لم يبشر ابراهيم وزوجته سارة باسحاق وحسب وإنما بشرهما باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب وليس من المعقول أن ينبئهما سبحانه من قبل ولادة اسحاق بأنه سيكبر وسيكون له نسل ثم يأمر خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذبحه وقول الطبرى في دفع هذا الدليل بأن الله تعالى أمر خليله بذبح اسحاق بعد ما أنجب ولده يعقوب قول تعوزه الحجة وينقصه الدليل وهو يتعارض وما جاء في الأسفار القديمة من أن زواج اسحاق إنما كان بعد وفاة والده صلوات الله وسلامه عليه .

وثانيا أن الله تعالى يقول « وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بسلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى » وظاهر من هذه الآية أن الغلام الذى بشر به والذى أمر بذبحه هو ابنه من هاجر لأن هذه الالغاءات المتتاليات تدل على أنه هو أول غلام رزق به ولا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب فى أن اسماعيل كان أسبق وجودا من اسحاق وقول الطبرى ان كل بشارة وردت فى القرآن إنما هى باسحاق قول غير منطقي لأن ابراهيم بشر باسماعيل من قبل أن يبشر بأخيه وليس بلازم أن تأتى البشارة على لسان الملائكة فان حمل هاجر به بشارة ووضعها له بشارة ولا يلزم من عدم تبشير الملائكة باسماعيل فى القرآن ألا يكون قد بشر به عن طريقهم

فان القرآن لم ينف صراحة أنه لم يبشر ابراهيم بولده
اسماعيل .

وثالثا أن المحنة بذبح اسماعيل عليه الصلاة والسلام أنكى
والبلاء به أشد فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد رزق
به بعد أن طعن في السن وأوغل في الشيخوخة وألح في طلب
المساعد والمعين فاذا امتحنه الله تعالى بذبحه بعد هذا العمر
الطويل وهذه الحاجة الملحة كانت المحنة أعظم وكانت العظة
والعبرة أتم وأبلغ وأنت خبير بما للابن الوحيد من منزلة
في قلب أبيه وقلب أمه .

ورابعا أن النحر شعيرة من شعائر الحج وسنة من سننه
التي صنعها ابراهيم والتي توارثتها الأجيال من بعده ومعلوم
أن اسماعيل هو الذي أسكنه أبوه مكة منذ طفولته وهو الذي
ساعده في بناء البيت وهو الذي شارك أباه في الابتهاال الى
الله أن يريهما مناسك الحج وهو الذي سمع نداء أبيه به لأول
مرة فأى الأخوين في منطق العقل يكون هو الذبيح اسماعيل
الذي مر بهذا كله أم اسحاق الذي لم ير من هذا شيئا .

وخامسا أن الله تعالى نعت اسحاق يوم بشر به أباه وأمه
بالعلم ونعت الغلام الذي أمره بذبحه بالحلم فكانت هذه
إشارة الى أن هذا غير ذاك وأنت خبير بأن اسماعيل عليه

الصلاة والسلام كان معروفا بالحلم وأنه قد ورث هذه
 الخصلة أبناءه من بعده وأنها كانت ظاهرة غاية الظهور في محمد
 عليه الصلاة والسلام الذي لم يكن يخير بين أمرين الا اختار
 أسهلها والذي لم يعرف العرب في زمانه أرحم ولا أحلم ولا
 ألين قناة ولا أوفر شفقة منه صلوات الله وسلامه عليه وقد
 فزل القرآن الكريم بهذا فقال تعالى « لقد جاءكم رسول من
 أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف
 رحيم » وحجة أخرى لا بد من الإشارة إليها وهي ما رواه
 المحدثون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول
 أنا ابن الذبيحين وما رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله
 عنهما من أن رجلا دخل عليه وقال له يا ابن الذبيحين وأنه
 عليه الصلاة والسلام قد ارتاح الى هذه العبارة وبدت معالم
 السرور على وجهه وأنت خير بأن هذين الذبيحين هما
 اسماعيل بن ابراهيم وعبد الله بن عبد المطلب ، وما ورد في
 أسفار العهد القديم من أن الذبيح هو اسحاق مدفوع بهذه
 الأدلة السابقة وثم دليان آخران وهما أن هذه الأسفار قد
 ذكرت أن ابراهيم أمر بذبح ولده البكر أو بذبح ولده الوحيد ولا
 خلاف في أن اسماعيل هو البكر وهو الوحيد حتى ولد اسحاق
 وأن أسفار العهد القديم ليست مما يصلح الاحتجاج بها فان
 تحريف اليهود لها وتغييرهم وتبديلهم فيها أشهر من نار على
 علم والحق الذي لا شك فيه أن الذبيح هو اسماعيل وأن
 اليهود قد حقدوا على العرب وصعب عليهم أن يكون أبوهم

هو أبا الفداء وصاحب هذه الواقعة التي رفعت قدره وأعلت ذكره وعطرت الوجود بنشر فضائله ومناقبه فزعموا أن اسحاق هو صاحب هذه الحادثة وغيروا من أجل ذلك أسفارهم القديمة ولما جاء الاسلام نشط كعب الأخبار ووهب بن منبه وغيرهما من علماء يهود في ترويح هذه الفرية ووضع الأحاديث التي تقول بها وتدعمها وقد صرح عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما بهذه الحقيقة وأنت ترى هذا واضحا فيما رواه عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن عباس قال : المفدى اسماعيل، وزعمت لليهود أنه اسحاق ، وكذبت لليهود .

وروى ابن حميد قال • حدثنا سلمة قال • حدثنا محمد بن اسحاق عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمى • عن محمد بن كعب القرظى أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز • وهو خليفة اذ كان معه بالشام ، فقال له عمر : ان هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وانى لأراه كما قلت ، ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم ، فحسن اسلامه ، وكان يرى أنه من علماء اليهود ، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك قال محمد بن كعب القرظى : وأنا عند عمر بن عبد العزيز ، فقال له : أى ابنى ابراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : اسماعيل ، والله يا أمير المؤمنين ، ان اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم

يחסدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه ، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره على ما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه اسحاق ، لأن اسحاق أبوهم وروى محمد بن سنان القزاز قال حدثنى حجاج ، عن حماد ، عن أبى عاصم الغنوى ، عن أبى الطفيل قال : قال ابن عباس : ان ابراهيم لما أمر بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه ، فسبقه ابراهيم ، ثم ذهب به جبريل عليه السلام الى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم تاله للجبين وعلى اسماعيل قميص أبيض ، فقال له : يا أبت انه ليس لى ثوب تكفنتى فيه غير هذا فاخضعه عنى ، فكفى فيه فالتفت ابراهيم عليه السلام فاذا هو بكبش أعين أبيض أقرن فذبحه ، فقال ابن عباس لقد رأيتنا نتتبع هذا الضرب من الذبيح هو اسماعيل وأن اليهود قد حسدوا العرب على هذه الكباش ، وواضح من هذه الروايات وما يدور فى فلكها أن المنقبة التى نالها أبوهم ابراهيم فزعموا أنه هو اسحاق .

ولهذا فان الحسن البصرى ومحمد بن كعب القرظى وعامر بن شراحيل الشعبي كانوا لايشكون فى أن حادثة الذبح كانت فى مكة وبعد بناء البيت وأداء المناسك وأن اسماعيل عليه الصلاة والسلام هو الذى مضى بفضلها وذهب بذكرها بل لقد روى الشعبي وغيره أن رأس الكبش الذى ذبحه ابراهيم كانت معلقة بالبيت

حتى ظهور الاسلام وفي بعض الروايات أن قرنى هذا الكباش
كانا يتوارثان الى ما بعد هذا الوقت وان تعجب فعجب زعم
الطبرى بأن هذه الرأس وهذين القرنين قد نقلتا من الشام الى
مكة وقد بنى قوله هذا على الجواز والاحتمال لا على وثيقة
مكتوبة ولا على حديث صحيح النسبة الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقد نسي المستشرقون هذه الحقائق كلها
وذهلوا عن التناقض الواضح في أسفار العهد القديم وزعموا
أن القرآن وان لم يصرح باسم الذبيح فان محمدا عليه الصلاة
والسلام وأصحابه كانوا على القول بأنه اسحاق وأن يهوديا
منافقا هو الذى زعم في مجلس عمر بن عبدالعزيز أنه هو اسماعيل
وأن ابن عباس لم يكن يدري على وجه الحقيقة أى الأخوين
كان هو الذبيح وأن الأسانيد قد تناقضت في النقل عنه الأمر
الذى ان دل على شيء فانما يدل على تناقض الطرق والأسانيد
عند المسلمين وعدم الثقة بها والاطمئنان إليها •

وقد تبين لك مما سبق أن ابن عباس قد كان جازما بأن الذبيح
هو اسماعيل وأنه قد عزا القول الآخر الى اليهود واتهمهم بالكذب
ونعت الكباش الذى ذبحه ابراهيم وذكر أنهم كانوا وما يزالون
ينتبعون ما يشبهه من الشاء لأداء هذه السنة واحياء هذه
الأحدوثة وما كان أشد فقه ابن كثير المؤرخ والمفسر وعمق
نظره حين قطع بأن الذبيح هو اسماعيل وعزا الأقوال التى
تخالف هذا الى كعب الأحبار سامحه الله ، وخير ما نختم به
هذا الحديث في هذه القضية قوله تعالى « ان هذا لهو البلاء
المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخريين سلام على

ابراهيم كذلك نجزي المحسنين وبشرناه باسحاق نبيا من
الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن
وظالم لنفسه مبين « فان الضمير في قوله تعالى « وباركنا
عليه » عائد على الذبيح وهو غير اسحاق الذي بشر ابراهيم
بنبوته قطعا « ومن ذريتهما » يعنى تعالى ومن ذرية اسماعيل
واسحاق محسن مسارع في الخير وظالم متورط في الشر والله
تعالى أعلم بالحق وما شهدنا الا بما علمنا وما أدانا اليه
البحث والاستقصاء ومناقشة النصوص ومقارنة الروايات
بعضها ببعض ♦

إِبْرَاهِيمُ بَيْنَ الْجَزَا وَالشَّامِ

وعلى كل حال فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد أكملَ
مناسكه وأتم حجه وودع زوجته وولده وأخذ طريقه نحو
الشام حيث كانت زوجته سارة ترقب أوبته وتنتظر عودته
والتاريخ لا يحدثنا كم أقام ابراهيم في مكة بعد أن فرغ من
المهمة التي كلف بها من قبل المولى سبحانه ولا عن الحوادث
التي مر بها وهو في طريقه منها الى الشام ويخيل الى أن
سؤاله ربه عن كيفية احيائه للموتى قد كان في هذه الفترة فقد
رأى الموت بعينه وهو يكاد يقترب من ولده اسماعيل وكيف أنه
قد أوشك أن يطفىء شمعاً حياته ويقطف زهرة وجوده لولا
اللطيف الالهي والعطف القدسي الذي أدركه فاستنقذه من بين
أظفار الردى ومخالب الحتوف فما كاد ابراهيم عليه الصلاة
والسلام يبتعد عن مكة ويغيب شبحه بين الهضاب والجبال
حيث لا تراه غير النجوم ولا تسمع صوت خطى راحلته سوى
الأحجار والصخور حتى راح يسأل ربه هذا السؤال الدقيق
العميق رب أرني كيف تحيي الموتى وسمع الجواب من قبل المولى
جل وعز أو لم تؤمن قال ابراهيم بلى ولكن ليطمئن قلبي وهنا

وافته المنة وواتته النعمة وتحقق الأمل الذى كان ينشده وأمره الله تعالى أن يأتى بأربع من الطير وأن يقوم بذبحها وفصل أعضائها بعضها عن بعض ثم يفرق هذه الأجزاء فيجعل على كل جبل منهن جزءا فإذا تم له ذلك دعاها فأقبلت إليه طيوراً كما كانت تعلوا وتهبط وتسكن وتتحرك وتصفق بأجنحتها وتصيح بأصواتها وألحانها وفعل إبراهيم ما أمره به مولاه وما كاد يرى هذه الحقيقة حتى هلك وكبر واتعظ واستعبر ورفع عقيرته^(١) شاهداً للمولى سبحانه بالقوة ومعترفاً له بالمشيئة والقدرة وما أشك في أن إبراهيم لم يكن شاكاً في إمكان البعث ولا مرتاباً في قدرة الله تعالى عليه وإنما كان طلعة يجب أن يفكر في كل شيء وأن يرى بعينه كل شيء كذلك فقد أرخى لنفسه منذ نعومة أظفاره عنان التأمل وفتح أمام عقله آفاق النظر ووصل بهذا البحث والاستقصاء إلى وجود المولى سبحانه وإلى وحدانيته وإلى أنه خالق الكون ومأنح الحياة وصاحب الحول والطول في هذا الكون الواسع العريض وأنت ترى يقين إبراهيم ورسوخ قلبه على الإيمان واضحاً في قوله تعالى « قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » فقد اعترف في جوابه هذا بأن الإيمان يملأ جوانب عقله ولكنه يريد أن يطمئن وجدانياً بعد أن أذعن عقلياً وفكرياً وأياً ما كان فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام عاد إلى زوجته سارة وقد وصفت لهما حياتهما وابتسمت ولا بد وأن يكون حدثها بما

(١) رفع عقيرته : أى صوته .

وقع له في مكة وما صادفه وهو في طريقته إليها وبعد أن ولى
 وجهه مفارقاً إياها ويروى الأخباريون أن إبراهيم عليه الصلاة
 والسلام قد كثر ما له وازداد ما عنده من النعم والغنم وأنه
 كان رجلاً كريماً يحب الأضياف ويعنى بهم ويبالغ في استقبالهم
 وإكرامهم وأن فترة قليلة مرت عليه دون أن يستضيف فيها
 أحداً وأن ذلك قد آله وشق عليه وأنه خرج إلى البرية لعله
 يجد ضيفاً يتقرب إلى الله تعالى بإكرامه وحسن استقباله
 وبينما هو كذلك وإذا بثلاثة رجال يلبسون ثياباً بيضاء ويظهرون
 في منظر يدل على النعمة ويشير إلى الثراء وهش لهم إبراهيم
 وبش وراغ إلى أهله وجاء بعجل سمين وكان هؤلاء الرجال
 قد بدأوا إبراهيم باللقاء السلام ورد عليهم التحية
 بمثلها وخوفه منهم عندما رأى أيديهم لا تصل إلى هذا العجل
 الذي قربه إليهم ورأى الرجال هذا الخوف والاضطراب في
 وجه إبراهيم فراحوا يطمئنون قلبه ويأمنون روعته ويكشفون
 له النقاب عن حقيقتهم وعن سبب مجيئهم فهم رسل الله وهم
 إنما جاءوا لهدم قرية سدوم وجعل عاليها سافلها ويرتاع
 إبراهيم ويشتد وجيب قلبه فسدوم هي قرية لوط وهو ابن
 أخيه وقد آمن به وصحبه وهو يهاجر من فدان آرام إلى ربوع
 الشام وهو يعلم أن سدوم قرية اشتهر أهلها بالظلم وعرفوا
 بالسوء فهم يأتون الذكران من العالمين ويذرون ما خلق الله
 لهم من الأزواج وهم يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر

ويرفع ابراهيم رأسه ويوجه حديثه الى الملائكة قائلاً ان فيها
 لوطاً ويوجب الملائكة نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا
 امرأته فانها معهم وهى على دينهم وترى سارة خوف ابراهيم
 وقلقه وتشاهد فرقه واضطرابه ولم تكن قد سمعت مادار
 بينه وبين الملائكة فتضحك ويقوم الملائكة فيبشرونها باسحاق
 ومن وراء اسحاق يعقوب وتعجب سارة من هذه البشارة
 وتصيح وهى تضرب كفا بكف قائلة يا ويلتا ألد وأنا عجوز
 وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب ويهدى الملائكة من
 انفعالها وينهتجون من حيرتها واستغرابها ويقولون لها أتعجبين
 من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد
 مجيد وتهدأ سارة ويسكن روعها وتعلم أن هذا هو أمر الله
 الذى لا تقهر قدرته ولا تغلب مشيئته والذى لا يحد أمره
 حدود ولا تكبله قيود وهكذا يعطى الله سارة الولد بعد ما تقدم
 بها السن ودبت فى جسمها الشيخوخة وانقطع أملها فى
 الانجاب والاعقاب وهكذا يسدى الله الى خليه ابراهيم نعمة
 بعد نعمة واحسانا بعد احسان ، ويشتاق ابراهيم عليه الصلاة
 والسلام الى ولده اسماعيل ويدفعه الحنان الأبوى الى زيارته
 والاطمئنان على أحواله ويركب راحلته ويولى وجهه شطر مكة
 وما يكاد يضع قدمه على أرضها حتى يسأل عن منزل اسماعيل
 فقد كثرت فيها البيوت وعمرتها عشائر جرهم ويصل ابراهيم
 الى منزل ولده ويعرف أنه تزوج وأن زوجته هى احدى بنات

جرهم فتمتلىء نفسه بالفرح ويجزل الحمد لله على أن من على
ولده بالراحة والاستقرار بعد أن من عليه من قبل بالانقاذ
والفداء ويطرق ابراهيم باب ولده وتخرج له امرأة عابسة
الوجه مقطبة الحاجبين وتسأله من هو وماذا يريد ؟ ولا يجيبها
ابراهيم عن سؤالها ولكنه يوجه اليها الخطاب قائلاً أين
اسماعيل وتجيبه المرأة لا أدري أين ذهب ولا متى يعود
ويسألها ابراهيم كيف حالكما وما الذى تشعران به فى هذا
البلد الذى لا نبات فيه وتجيبه المرأة نحن فى أسوأ حال وأنكد
عيش وأكدر حياة وتؤثر هذه المقابلة الفظة وهذا الاستقبال
الخشى فى نفس ابراهيم ويلوى عنان ناقته ويعود من حيث
أتى وقبل أن يفارق الدار يقول لزوجة ولده اذا جاء اسماعيل
فأقرئني منى السلام وقولى له ان شيخا من صفته كذا وكذا
قد أقبل يسأل عنك ومضى دون أن يراك وهو يوصيك بأن تغير
عتبة الباب ويعود اسماعيل فيجد ريح أبيه يملأ المكان ويسأل
زوجته مستفسرا أما جاءنا فى هذا اليوم من أحد وتجيبه المرأة
بما جرى وتبلغه وصية الشيخ ويطرق اسماعيل فى حزن ثم
يرفع وجهه الى زوجته ويقول لها أتعرفين من هذا الشيخ انه
أبى وهل تدريين ماذا يريد انه يوصينى بفراقك فأنت عتبة
الباب فقومى والحقى بأهلك فقد طلقتك وما أشك فى أن
اسماعيل قد اشتد حزنه لهذا الاستقبال الجاف الذى واجهته
به زوجته أباه وما أشك فى أنه هو الباعث لابراهيم على

الذهاب وعدم الانتظار فقد عبثت في وجهه وأبت أن تضيفه وسأقت اليه من العبارات التي تنبئ عن جحود النعمة وكفر المنة ماكره اليه الدار وأغراه بعدم البقاء والانتظار ويروى الاخباريون أن هذه الواقعة قد تكررت مرة ثانية وأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد برح به الشوق الى ولده ودفعه الحنين الى معاودة زيارته وأنه أعد العدة وجمع الأهبة وأخذ طريقه نحو مكة ولم يسأل في هذه المرة عن بيت اسماعيل فقد عرفه ولا عن ما اذا كان قد تأهل فقد رأى زوجته بالفعل في المرة الماضية وطرق الباب وخرجت اليه امرأة سمحة الوجه طلقة المحيا وما كادت تراه حتى ابتدرته قائلة أهلا ومرحبا بالشيخ الجليل والضيف الكريم ودعته الى النزول فاعتذر بأنه انما حضر لحاجة ولا بد وأن يرجع أدراجه فور قضائها وسألها عن اسماعيل وعن عيشهما في هذا المكان وأجابته المرأة بما أبهج خاطره وأعبط فؤاده قالت اننا في أحسن حال وقد خرج اسماعيل للصيد وهو عما قليل يعود وسألها ابراهيم عن طعامها فأجابته بأنه اللحم واللبن فدعا الله أن يبارك فيهما وأمام اصراره على عدم النزول جاءت بحجر ووضعته تحت قدمه وصبت ذنوبا أو ذنوبين من الماء على رأسه وغادر ابراهيم المكان وهو يقول لها اذا جاء اسماعيل فأقرئيه مني السلام وقولي له فليثبت عتبة الباب وقصت المرأة القصة على زوجها وأبلغته الوصية وفرح اسماعيل وأنبأها بأن هذا الشيخ هو

أبوه وأنه يوصيه بها خيرا وما أرتاب في شيء ارتيابي في عدم
انتظار ابراهيم في هذه المرة حتى يلتقى بولده اسماعيل فهو
من أجله عانى مرارة الأسفار وواصل في سيره الليل بالنهار
وقطع من أجل مشاهدته الفياقي والقفار ومهما قيل من أن
البراق هو الذي كان يحمله من الشام الى مكة ومن مكة الى
الشام فإن هذا لا يحملنا على أن نطمئن الى أنه عاد من غير
أن يراه ومضى من قبل أن يضمه الى صدره ويطوقه بزراعيه
والذي أظنه أنه قد انتظر في هذه المرة حتى لقيه ونعم ولو
بلحظات بمشاهدة وجهه والاستماع الى حديثه وفطن ابراهيم
عليه الصلاة والسلام بأنه وقد كبر سنه ودق عظمه وأبلغ
رسالة ربه وأنعم عليه بولديه اسماعيل واسحاق وبنى البيت
الحرام وامتنحن بما امتحن به من البلايا العظام وانتهت
مآسيه برحمة ربه به ورضاه عنه فقد آن لشمعة حياته أن
تخمد ولسنا سراجة أن ينطفئ وأنه لن يلقى ولده اسماعيل
بعد هذه المرة في هذه الحياة الدنيا فودعه أحر وداع ودعا
له أرق دعاء حتى اذا غادر البلد الحرام وكادت أن تغيب
معالمها عن عينيه وأن تتأى مشارفها عن ناظريه أمر ناقته فوقفت
وولى وجهه نحو هذا الحرم الآمن وهذا المكان الوادع وراح
يبتهل الى ربه بهذه الكلمات الطيبات وهذه الدعوات الصالحات
التي انفطرت لها الصخور الغبراء ورقت لها النجوم في السماء
والتي سجلها المولى سبحانه قرآنا يبقى مابقيت الحياة ويدوم

مادام ملكوت الله وأنت ترى هذا في قوله تعالى « واذ قال
 ابراهيم رب اجعل هذا ابلا آمنا واجنبنى وبني أن نعبد
 الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى
 ومن عصانى فانك غفور رحيم ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد
 غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل
 أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم
 يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله
 من شئ فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى
 على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء رب اجعلنى
 مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى
 ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب • » وواضح من هذه
 الآية أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام دعا لهذا البلد الذى
 أسكنه ولده بالأمن وضرع الى المولى جل وعز أن يجنبه وبنيه
 جميعا عبادة الأصنام وعلل هذا بأنها قد أضلت الكثيرين من
 الناس وختم هذا الجزء من الدعاء بهذه الكلمة التى تسيل رقة
 وتتفجر غزوبة ورحمة ، من تبعنى فإنه منى ومن عصانى فانك
 غفور رحيم وذكر ولده اسماعيل وكيف أنه قد أسكنه بواد
 قفر ومكان جذب وأنه ما قصد من وراء اسكان بعض ذريته
 بهذا الوادى الا ليقيموا الصلاة وضرع الى الله تعالى بأن
 يميل الى ذريته هؤلاء الأفئدة ويعطف عليهم القلوب ويرزقهم
 من الثمرات ليستديموا النعمة بالحمد ويستبقوا المنة بالثناء
 والشكر ومضى يقرر أن الله يعلم سره وجهره وما يخفيه

وما يبديه وأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في
السماء وأنه تعالى يستحق أجزل الحمد وأعظم الثناء لأنه
وهب له على الكبر اسماعيل واسحاق ومضى عليه الصلاة
والسلام في هذا التضرع والابتهاال فطلب من المولى سبحانه
أن يوفقه وذريته لاقامة الصلاة وأن يتقبل تضرعه ودعاه ولم
ينس وهو في مقامه هذا والديه ولا اخوانه من المؤمنين بدينه
والموقنين بعقيدته فاستغفر لنفسه واستغفر لأبيه وأمه
واستغفر لأصحابه في مبدئه ورفاقه في عقيدته •

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُفَارِقُ الْحَيَاةَ

وهمز ابراهيم عليه الصلاة والسلام ناقته وأخذ طريقه نحو الشام ولسنا ندري كم أقام عليه الصلاة والسلام في بلاده بعد هذه الزيارة لولده ولكننا نعرف أنه قدمنى بوفاة سارة قرينة حياته ورفيقته في شبابه وهرمه والرواة يختلفون في الموضع الذى دفنها فيه والأكثرون على أنه دفنها في مزرعة اشتراها بحبرون والقرآن الكريم لم يحدثنا عما اذا كان لابراهيم عليه الصلاة والسلام من البنين غير اسماعيل واسحاق وولده يعقوب أما المؤرخون فيذكرون أنه قد تزوج بزوجتين أخريين بالاضافة الى زوجته سارة وهاجر فنساؤه اذا كن أربعاً وأنه قد أنجب اسماعيل من هاجر واسحاق من سارة وخمسة من قطورة بنت يقطن وستة من حجور بنت أرهير وهاتان المرأتان كلتاهما من العرب وعلى هذا الأساس يكون أزواج ابراهيم أربعاً وأولاده ثلاثة عشر كلهم من الذكور أما الاناث فلم أجد له فيما قرأت منهن شىء وعلى كل حال فان ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد عمر في هذه الدنيا وطال أجله في هذه الحياة وعاش مائتى عام عند قوم ومائة وخمسة

وسبعين عاما عند قوم آخرين ويروى الاخباريون أنه كان قد
سأل ربه ألا يميتته حتى يكون هو الذى يطلب منه الموت وأن
الله تعالى لما أراد أن يقبض روحه أرسل اليه ملك الموت فى
صورة شيخ كبير قد أضناه المرض وبرحت به العلة وأصابه
من ريب الزمان ما أصابه وأن ابراهيم قد رثى لحاله وتألم
لوهنه وضعفه ومدى مايعانى من الأسقام وما يكابد من
الآلام وأنه سأله كم قضى من العمر فى هذه الدنيا فأجابه
بما يفيد أنه أكبر منه بسنتين اثنتين وعند ذلك استعبر ابراهيم
وخشى ان هو امتدت به الحياة الى هذا الحين أن يصيبه
ما أصاب هذا الشيخ الكبير فسأل الله تعالى أن يقبضه اليه
فانتفض هذا الشيخ وبدا على حقيقته وقبض روحه ويبدو لى
أن هذه الرواية من الاسرائيليات التى لا يسندها نقل ولا
يطمئن اليها عقل فان ابراهيم الذى لم يسأل الله وهو فى النار
انقاذه من الردى وان جاءه من اللظى وذكر أن غلمه سبحانه بحاله
يغنيه عن سؤاله لا يمكن أن يتشبث بالحياة الى هذا الحد
ولا أن يتعلق بها الى هذه الغاية وأيا ما كان فانه عليه الصلاة
والسلام قد فارق هذه الحياة عندما أزفت ساعته التى لا تتقدم
ولا تتأخر وكأنى به صلوات الله وسلامه عليه وقد جمع ما عنده
من بنيه وأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن يظلوا أوفياء لدينه

فصراء للته يعيشون لها ويموتون عليها ويجاهدون في سبيلها
ويحبون ما يحبون ويبغضون ما يبغضون من أجلها وأنت ترى
هذا المشهد الرهيب وهذا المنظر المهيّب في قوله تعالى « ومن
يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في
الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه أسلم قال
أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى
ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون أم
كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون
من بعدى قالوا نعبد الهك واله آباءك إبراهيم واسماعيل
واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » وهكذا وصى إبراهيم
بنيه بأن يكونوا حماة للتوحيد رعاة له يعلون لواءه وينشرون
رأيته وهكذا غادر إبراهيم هذه الحياة وترك هذه الدنيا ولكن
بعد أن خط فيها بحروف من نور سيرته وقصة حياته وكفاحه
الذى لم يفتر وجهاده الذى لم ينقطع وقد شاء المولى سبحانه
أن يخلد ماآثره ويديم على الدهر فضائله ومناقبه فسجلها في
صحف لأنبيائه وفي كتبه التى أنزلها على رسله وأنت اذا
تصفحت التوراة والانجيل والقرآن وجدت كل هذه الأسفار
مثنية عليه حامدة لآثاره لاهجة بقدره وذكره واقرأ على سبيل
المثال فيه صلوات الله وسلامه عليه قوله تعالى « ان إبراهيم
كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه
اجتبه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة

وانه في الآخرة لمن الصالحين » فقد جمعت هذه الآية كما ترى
خصال الخير وشيم البر وعزتها كلها الى ابراهيم عليه الصلاة
والسلام فهو أمة في الفضل وهو قانت كثير العبادة والزهد
وهو مائل بعقله وقلبه عن الباطل الى الحق وهو لم يكن في يوم
من أيام حياته مشركا يعبد الآلهة وينوع الأرباب وهو شاكرا
لأنعم ربه عليه على الرغم مما قاسى من المحن وما عانا من
الأحوال وهو من أجل هذا كان جديرا باصطفاء الله له للنبوة
واجتباؤه اياه للرسالة وهو قد أعطى في هذه الدنيا حسنة وهي
الثناء الجميل والذكر الطويل والسيرة العطرة الفواحة بشذى
الخلق الفاضل والسلوك الكامل وهو في الآخرة من الصالحين
الذين يستحقون الثواب الجسيم والمقام العظيم وفي القرآن
الكريم أن الله تعالى قد ابتلى هذا الخليل بكلمات وأنه عليه
الصلاة والسلام قد أتمهن ووفى بهن وأنت تجد هذا في قوله
سبحانه « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن » والمفسرون
مختلفون في عدد هذه الكلمات وفي معناها وهل هي عشر
أم أنها قد بلغت أربعين كلمة وفي تصوري أن هذه الكلمات
هي البلايا والمحن التي مرت به عليه الصلاة والسلام من بداية
حياته الى نهايتها وما القاؤه في النار ولا خروجه من وطنه ولا
محاولة اعتداء الملك على عرضه ولا القاؤه زوجته وولده بين
الصحارى والجبال بلا طعام ولا شراب ولا رفاق ولا صحاب
ولا أمره بذبح وحيد بعد كبر السن ووهن العظم ولا تكليفه
ببناء البيت ولا موت زوجته وأحب خلق الله اليه في حياته

الا بعض هذه الكلمات ألا ما أعظم هذا البلاء وما أعظم هذا
الوفاء وما أروع هذا المثل الذي يضرب لكل فضيلة ويساق
لكل منقبة والذي تتغنى بمآثر صاحبه الأزمان بعد الأزمان
وتشدوا بمناقبه الايام بعد الايام •

وفاة اسماعيل عليه السلام وشأن البيت بعده

ونعود مرة أخرى الى اسماعيل عليه الصلاة والسلام فنذكر أنه قد عمر مائة وثلاثين سنة وأنه قد لبث هذا العمر كله أو أكثره في مكة وأنه كان ينتقل منها في الفينة بعد الفينة والحين بعد الحين الى اخوته وبنى أبيه فيتفقدهم ويسأل عنهم صلة منه للقرابة ورعاية للرحم وطلبا للمثوبة من المولى سبحانه وقد تزوج اسماعيل عليه الصلاة والسلام من امرأتين وطلق أولاهما بأمر من أبيه وأبقى على الثانية وأنجب منها اثني عشر ولدا وقد عدّه القرآن الكريم من المرسلين وذكره ضمن أسماء النبيين وأنت تجد هذا واضحا في سورة الأنعام وفي سورة مريم واقراء على سبيل المثال في هذا قوله تعالى « ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف موسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » واقراء كذلك قوله سبحانه « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » والمؤرخون يذكرون أنه عليه الصلاة والسلام قد أرسل الى العماليق وأهل اليمن وأنه ظل يبشرهم وينذرهم حتى وافته منيته وهو في مكة وأنه دفن بالحجر حيث دفنت والدته وأن العرب المستعربة كلها منحدره من صلبه وأن

محمدا عليه الصلاة والسلام فرع من شجرته الطيبة وغصن
 من دوحته المباركة وقد فارق اسماعيل عليه الصلاة والسلام
 هذه الحياة وترك البيت الحرام امانة في عنق أصهاره من جرهم
 عامة وفي عنق أبنائه لصلبه منهم خاصة ، ويروى الاخباريون
 أن أول من ولى أمر البيت بعد اسماعيل عليه الصلاة والسلام
 هو ابنه نابت حتى اذا هلك تنازع الأمر من بعده جرهم
 والعماليق وأقصوا ولد اسماعيل وكانت جرهم تلى مكة من
 أعلاها وكانت العماليق تليها من أسفلها ثم انهما قد تحاربا
 وغلب العماليق وظلوا يملكون مكة ويلون أمر البيت حتى
 دالت دولتهم وضعفت شوكتهم وظهرت جرهم مرة أخرى
 عليهم ، وقد شاء الله سبحانه أن يكثر ولد اسماعيل ويغلب
 عودهم ويسترد ملكهم وولايتهم على البيت من أخوالهم حتى
 اذا ثبت نار الحرب بين اياد ومضر من ولد نزار بن عدنان
 وأوهنت الفريقين جاءت خزاعة وملكت مكة واستولت على
 على البيت الحرام ويروى المؤرخون وكتاب السير أن دين
 ابراهيم وولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام قد ظل سائدا
 في مكة وما حولها حتى جلب عمرو بن لحي الخزاعي الأصنام
 من الشام ونصبها حول البيت الحرام ودعا الناس الى
 عبادتها وتقريب القرابين لها وأن هذا التغيير للحنيفية قد
 أثار ثائرة العرب وأحفظ نفوسهم وراح الشعراء يعاتبون
 عمرا ويلومونه وأنت ترى هذا في قول الشاعر :

يا عمرو ، انك قد أحدثت آلهة
 شتى بمكة حول البيت أنصبا

وكان للبيت رب واحد أبدا
فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل
سيصطفى دونكم للبيت حجابا

وهكذا عبدت الأصنام في مكة وباض الشرك وأفرخ بين
وبوعها ولم يبق من الحنيفية سوى مناسك الحج وحتى هذه
قد أخذ التغيير والتعديل يدنو منها رويدا رويدا وملكت خزاعة
هاشما الله لها أن تملك حتى آل أمر مكة عامة وأمر البيت
خاصة الى قصي بن كلاب الذي جمع قريشا وألف كلمتها
وأسكنها حول الكعبة والذي قسم بين أبنائه مزايا الشرف
وظائف الرياسة وآلت الزعامة الدينية من ولد قصي الى هاشم
ابن عبد مناف ومنه الى عبد المطلب جد النبي محمد عليه
الصلاة والسلام والمؤرخون يذكرون أن البيت الحرام قد
تعرض في هذه الفترة الطويلة لمحن كثيرة ومحاولات شتى
لهدمه أو النيل منه وأن الله تعالى كان يتولاه بالحفظ ويشمله
بالحماية والرعاية وأنت خير بما كان من أبرهة وجنده أنهم
قد خرجوا من اليمن يريدون هدمه وابطال أهدوثته وكيف أن
الله تعالى قد أحبط كيدهم وأفسد تدبيرهم وأنزل بهم من
البطش والانتقام ما مزقهم وفرقتهم وجعلهم أحاديث تمشي
بها الركبان وترويتها الأزمان للأزمان واقراً في هذا ان شئت
قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل
كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة
من سجيل فجعلهم كعصف مأكول »

والمؤرخون مجمعون على أن العرب جميعا كانوا يجلبون
 البيت الحرام ويعظمونه ويجيئون اليه من كل حدب وصوب
 وكانوا يحرمون الأشهر التي كانوا يقصدون فيها اليه فلا
 يسلبون فيها سيفا ولا يشرع فيها رمح حتى ان الرجل كان
 يلتقى بقاتل أبيه أو أخيه فلا تمتد يده اليه فيها بسوء، وإذا
 كان العرب جميعا يقدسون البيت الحرام هذا التقديس فان
 قريشا قد بلغت في ذلك الغاية وأربت على النهاية ولهذا فان
 السيول عندما أوهت أركان البيت وأوهنت أجزاءه واضطروا
 الى أن يكروا في إعادة بنائه لم يجمعوا له من أموالهم الا
 ما كان حلالا طيبا فلم يقبلوا فيه مهر بغى ولا درهما أو دينارا
 أخذ عن طريق الربا أو العصب ولما عزموا على هدمه واعادته
 اضطربت منهم الأفئدة وارتعدت القلوب ولم يجترى أحد
 منهم أن يضرب فيه بفأس حتى أراهم الله تعالى علامة طمأننت
 منهم النفوس وأثلجت منهم الصدور ، فقد ذكر الاخباريون أن
 حية صغيرة كانت تخرج من شق قريب من الكعبة وكانت
 تخيفهم بصوتها وفحيحها وكانوا يظنون أنها اشارة من الله
 تعالى تمنعهم عما كانوا قد أجمعوا عليه وإذا طائر يهوى
 بجناحيه وينقض على هذه الحية ويطير بها الى حيث لا يدري
 الا الله وإذا هم يستبشرون ويأخذ الوليد بن المغيرة فأسه
 ويضرب به البناء لأول مرة ومع كل مارآه القوم فانهم لم
 يجترئوا على مشاركته حتى بات ليلته وأصبح بخير لم يصبه
 ألم ولم يمسه سوء وهدم البيت وأعيد بناؤه واختلف القوم
 في وضع الحجر الأسود أيهم يعيده الى مكانه من البيت وراحت

كل قبيلة تحرص على أن يكون لها هذا الشرف حتى لمعت نذر
الحرب وبرزت صواعق القتال ولم ينجهم من هذا الشر غير
اتفاقهم على أن يحكموا بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد
وكان محمد عليه الصلاة والسلام هو هذا الحكم وهو الذي
أعاد إلى القوم وحدة الصف والتتأم الكلمة فقد وضع الحجر
الأسود في ثوبه ودعا كل قبيلة أن تأخذ بأحد أطرافه حتى
إذا رفعوه إلى مكانه تناوله هو وأعادته إلى موضعه وقد أعيد
بناء البيت الحرام مرتين آخرين أما أولاهما ففي خلافة
عبد الله بن الزبير ومرجع هذا إلى أن يزيد بن معاوية لما
حاصر مكة راح جند الشام يضربون البيت بالمنجنيق وكانوا
يستعملون في ذلك الأحجار وقطع القماش الملوثة بالنزيت بعد
أن يضرهوا فيها النار وأن عبد الله بن الزبير قد اضطر
إلى إعادة بناء البيت بعد أن احترقت أعواده وعملت النار
عملها فيه ومن المؤرخين من يقول إن احتراق البيت لم يكن
بفعل جند الشام وإنما كان أحد جنود ابن الزبير قد أوقد ناراً
ليصطلي بها وكان الوقت شتاء وكانت الرياح عاصفة فشبت
النار في أستار الكعبة وكان ما كان ، وتبقى المرة الثانية التي
أعيد فيها بناء البيت وكانت في خلافة عبد الملك وفي الحصار
الثاني لابن الزبير فإن الحجاج بن يوسف الثقفي بعدما قتل
ابن الزبير وصلبه كتب إلى عبد الملك في هدم البيت وإعادته
إلى مثل ما كان عليه في الجاهلية وكان عبد الله قد أعاده إلى
ماكان عليه أيام بناء إبراهيم له اعتماداً على حديث صحيح

روته أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم وما كاد الحجاج يظفر برضا الخليفة في دمشق حتى نقض ما فعله ابن الزبير وأعاد البيت الى ما كان عليه في الجاهلية ويروى المؤرخون أن أبا جعفر المنصور قد راودته فكرة ابطال ما فعله الحجاج واعادة البيت الى مثل ما كان عليه في عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام عملا بحديث عائشة رضی الله عنها غير أن الامام مالك حذره من هذه الفكرة وخوفه ان هو قام بتنفيذها أن يظل البيت الحرام لعبة في يد الملوك يتداولونه بالهدم والبناء ومنذ هذا الحين لم يعد أحد من الحكام يفكر في مثل ما فكر فيه المنصور وبقي البيت محاطا بالاكبار والاعظام لا تمتد اليه الأيدي الا بالاصلاح والترميم أو التماس البركة من المولى جل وعز .

الذبيح الثاني

ويبقى حديث زمزم التي فجرها جبريل من تحت عقب اسماعيل والتي كانت هي السبب الذي من أجله عمرت مكة وآوى إليها بطون جرهم والعماليق ، ويروى المؤرخون أن هذه البئر بقيت تسقى أهل مكة حتى دفنتها جرهم بعد أن اضطرت إلى الجلاء عن البيت الحرام أمام زحف خزاعة واستعاض الناس عن مائها بآبار حفروها حتى رأى عبد المطلب في منامه من يأمره بإزالة الثرى عنها وتكررت هذه الرؤيا ثلاث مرات في ثلاث ليال متواليات وقام عبد المطلب وابنه الحارث بالحفر عن هذه البئر بعد أن دله الهاتف على مكانها وأنبأه باسمها وكانت جرهم قد دفنت مع البئر غزالتين من ذهب بالإضافة إلى عدد من السيوف والدروع ، وما أن تم الحفر حتى خاصمت قريش عبد المطلب على الذهب والسلاح وعلى الماء كذلك فالبئر، بئر ابراهيم وهم جميعا من ولده وانتهى النزاع بأن أخذ عبد المطلب السلاح وضرب الذهب وصفحته به أبواب الكعبة وجعل الماء شاعا يشرب منه من يشاء، ويروى المؤرخون وكتاب السير أن عبد المطلب لما نازعه قومه على الحفر ونازعه على الماء والذهب والسلاح ولم يكن له من الولد من يشد أزره سوى الحارث أعطى لله نذرا لأن رزقه الله تعالى بعشرة ذكور ليذبحن منهم واحدا له سبحانه وتم له ما أراد وبلغ عشر ذكور واستشارهم عبد المطلب في نذره هذا وكلهم رضى بأن يكون هو الفداء ولكي

ينفذ ما اعترمه فقد أسهم بين أولاده وخرج القدح على أحبه
اليه وهو عبد الله آخر هؤلاء البنين وجودا على وجه هذه
الحياة وأخذ عبد المطلب مديته واصطحب ولده ليذبحه
وعارضت قريش كلها في هذا الغدر وخافوا أن تكون هذه عادة
من الآباء نحو الابناء وانتهى الرأي الى أن يحتكموا الى كاهنة
كان لها تابع من الجن وكانت مشهورة لديهم بالخبرة والعلم
وسألتهم الكاهنة كم الدية فيكم فقالوا عشر من الابل فأمرتهم
أن يضربوا بالقدح عند هبل على عبد الله وعلى هذه العشرة
فان خرجت القداح عليه والا زادوا عشرا بعد عشر حتى
يرضى الرب ، وذهب القوم ونفذوا ما أمرت به الكاهنة وكانوا
كلما ضربوا القداح خرجت على عبد الله حتى بلغت الابل مائة
وعند ذلك خرجت على الابل واستبشر القوم وكبروا وأصر
عبد المطلب على أن يدير الأقداح مرة بعد مرة حتى يطمئن قلبه
ويثق من أن الله تعالى قد رضى ، وبعد ثلاث مرات أمر عبد
المطلب بالابل فنحرت وتركت لا يزداد عنها انسان ولا حيوان
ولا طائر وهكذا كان عبد الله بن عبد المطلب هو الذبيح الثانى
بعد اسماعيل عليه الصلاة والسلام وهكذا ذهب هو الآخر
بهذه المنقبة السامية وهذا الذكر الجميل صلى الله على
اسماعيل وابراهيم وصلى الله على محمد ابن الذبيحين وسيد
الثقلين عدد كلماته وزنة عرشه وجعل هذا العمل خالصا له
وحده وألهمنا شكره وحمده .